الموقع الجغرافي لتشاد وأثره في تكوينها العام

مع الاهتمام باللغة والدين

أ.د. محمد عبد القنّي سعود

موقع تشاد والوضع الطبيعي

حوض منخفض من الناحية الفيزيوغرافية، ترتفع جوانبه تدريجيًا من بحيرة تشاد بارتفاع يبلغ نحو 250 مترًا فوق سطح البحر إلى ميفات إندى وتبسط في الشمال وهي التي يسمى ارتفاعها على ثلاثة آلاف متر. كما يرتفع هذا الحوض بالاتجاه جنوبًا حيث رفعه تفسير المياه بين نهر غاني والجابي. هذا الحوض الضخم الذي تحتله الدولة بمساحة 1,284,682 كم² ممتدًا بين درجتي 12°20' و 23°30' شمالاً، جعلها أقرب إلى المستطيل، فامتدادها الشمالي / الجنوبي يبلغ نحو 1,600 كم في حين أن متوسط عرضها 800 كم. يمكنه في طرف الجنوب compact والغربي بناءً أقرب إلى الزائدة الدودية في الإنسان، وهذه الزائدة تمتد ما بين جمهوريتي الكونغور وإفريقيا الوسطى.

هذه الاستفادة جعلت تشاد تتضمن ثلاثة أقاليم مناخية بانتقائية كبرى، كل ثلاثة أقاليم جغرافية كان لها أثرها في ضروب معيشة السكان، فالإقليم الصحراوي الشديد الجفاف يمتد من الحدود الليبية الجزائرية حتى درجة عرض

---

** أساتذة معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.
15 شملاً تقريباً ويبعد عن أكثر من ثلاث مساحة تشاد، وهي صحراوية حقيقية لا يتخللها من المطر إلا النذر البسيط وتناثر فيها بعض الواحات والآبار التي تُسقى منها أشجار النخيل وقليل من الذرة الرقعة والدخان، ولا يعيش فيها إلا التقليل من السكان (20%)، غير أن هذا الإقليم الذي لا نظام للمطر فيه، قد تغزو العواصف على جبال تمتي فقس المطر مدراراً على صفوح هضاب الحجر الرملي لإردي وإنيدي، ويمتد ما يظهر المطر فأجأ يختفي في جفوة وتختفي المياه ففي بطن الأوادية قبل أن تصل إلى السهول، ولن كنا هذه المجاري المائية لا تبلغ بحيرة تشاد، فهي توفر مياهاً بائتماً تلتجا إليها ينبأض لحصول على الماء لها وتطعُنها.

وفي الأطراف الجنوبية لهذا الإقليم يسقط نحو 30 سم من المطر في ثلاثة شهور ما بين يوليو وسبتمبر، في حين أنه يظل جافاً لمدة سبعة أشهر، ويعطى سطح أخضر سرعان ما ينهب إليه رعية الصحراو، من الشمال بماشيهم - وغالبها من الإبل - لرعي تلك الحشائش، ولكن سرعان ما ينقر الإقليم أيضًا نتيجة لإجهاد الرعي، وانقطاع المطر، فيعود رعية الإبل مرة أخرى إلى واحاتهم الممتازة.

أما وسط تشاد أو ما يعرف جغرافيًا بإقليم الساحل ويمتد من النطاق الصحراوي السابق إلى شمالي نهر شاري، ومن مراكز الاستقرار فيه أشييه، ودبل ومنجو، نجومنا العاصمة؛ فيزيد فيه المطر إلى 75 سم كما تسجلها نجمائنا سنوياً، ويبدأ مطره من أبريل ومايو، وينقع في هذا الإقليم أيضًا نصيب تشاد من بحيرة تشاد الذي تشاركها فيه كل من نيجيريا والنيل والنيجر والكروم، ومن ثم فإنها مع زيادة رطوبة الإقليم قد تظهر المستنقعات وتزداد مياه الآبار. هذا هو إقليم
حشاش السفانا المكشوفة التي تتخللها الأشجار المقاومة للجفاف كأشجار السط التي تنبت هنا وهناك، وهنا تظهر الزراعة المختلطة، أي إلى جانب تربة الماشية تقوم الزراعة، وهي تقل حتى تختص على الحدود الشمالية لهذا الإقليم.

وبعد خط 14 شمالًا الذي يمر عبر بحيرة تشاد هو الحد الشمالي لزراعة المحاصيل اعتمادًا على المطر، ومن ثم تقتصر الزراعة على الواحات المتناثرة، ويتوجه السكان بحيواناتهم في تحركات فصلية ما بين الأطراف الشمالية حيث فترات المطر القصيرة، ثم يعودون أدارتهم نحو الجنوب حيث فصل المطر الأطول نسبًا مفيدين من المياه والمراعي التي تظهر في مجارى الأودية المقطعة التي تظهر عقب فصل المطر.

أما الإقليم الأخير وهو الأصغر مساحة فيمتد إلى الجنوب من الإقليم السابق، ويعرف بالإقليم المداري الممطر صياغًا أو الإقليم السوداني بالمعنى الصحيح، ويسقط فيه من المطر ما يبلغ نحو 125 سم في شهر الصيف ويعجز فيه فصل الجفاف إلى خمسة أو ستة شهور، وهنا إقليم السفانا الطويلة، والسفانا البستانية التي تزدهر حشائشها في فصل المطر، ثم تنتهي الحياة النباتية خلال خمسة شهور الجفاف من نوفمبر إلى مارس. وقد انتشرت الزراعة في هذا الإقليم على حساب الحشائش: زراعة القطن، والذرة، والأرز، والفول السوداني، وغيرها، وهي التي تمتلئ 95% من الصادرات الزراعية. وتعد بلدة موندو في جنوب شرق الإقليم مركز تسوية القطن، المحصول الشتوي الرئيسي، وكان لهذه الظروف الطبيعية أثرها في تركز السكان في القسم الجنوبي حيث
المطر الأوفر، وهو القسم الذي لا تزيد مساحته على 15% من مساحة البلاد، في حين أنه يضم معظم الأراضي الزراعية، وتمارس فيه أيضًا تربية الحيوان. وقد أدى هذا إلى تجمع أكثر من نصف السكان الذين يزيدون على 8 ملايين نسمة على عكس الإقليم الشمالي المخلص السكان الذي يعد امتدادًا للصحراوي الليبية، وصحراء جنوب الجزائر وشمالي السودان.

ولا تقتصر أهمية الجنوب على هذا، بل إن القاعدة الصناعية لتشاد يضمها هذا الإقليم الجنوبي، في نجامينا ومونشو، حيث تتوفر بها مشروعات حكومية قائمة على الإنتاج الزراعي، وصناعات تجميعية للراديو، والدراجات، والسكر، والبيرة، والسجائر، والمنتجات التقنية، والمجمع الصناعي الرئيسي في تشاد، وهو يعمل من خلال مؤسسة Bandar، ومصنع السكر في Cotontchad وهو من ثم فإن الإقليم الجنوبي لتشاد يضم المعمور النشادي، وهو قلب تشاد الاقتصادي، خاصة إذا عرفنا أن البترول ظهر فيها جنوب النهرة وشمالها، كما يضم معمل تكرير البترول في Sedeigi.

الموقع وتعزيرتشاد بالسكان

ونأتي مرة أخرى لبيان أن الموقع الجغرافي لتشاد في تعميرها بالسكان، فهذه البوسنة تم تعميرها من الشمال والشمال الغربي بالجماعات الرعوية من الأمازيغ والعرب، ومن الغرب أثناها الفولاني والهوسا، هذا فضلًا عن أولئك القادمين من سودان وادي النيل شرقًا، ومن الجنوب بالعناصر الإفريقية الواردة من إفريقيا الوسطى، وهو ما سيأتي ذكره فيما بعد.
وقد تدرجت حرف هذه الجماعات من الرعي الخالص والبداوة بأجل
معانيها في الشمال، إلى الرعي والزراعة عند أشياه البدو في الوسط، إلى الزراع
ومرير الحيوان المستقرين في الجنوب حيث تسمح الأمطار بالزراعة، وهذا
التقسيم الحرفي يعتبر مبسطًا أكثر التبسيط، لأن الهجرات الناتجة عن الرعي،
فضلاً عن تقلب الظروف المناخية طوال العصور، وخاصة الظروف الجفاف الشديد
والطوارئ التي تسبب أكثر مما تسبب إقليم الساحل - تجرب البدو وأشياه البدو
على التحرك جنبًا إلى جنب كي قادر من المطر يتيح لهم ولحيويتهم الحياة، ومن ثم
تختلف توزيعات السكان، فهى إقليم الساحل هذا تحدث تغيرات غير دورية من
الجفاف وأحيانًا تستمر دورة الجفاف عدة سنوات كما حدث في الفترات
1911/1914 1917/1923 1925/1929 1935/1939 1945/1950 على التوالي، بل كان أوائل القرن التاسع
عشر في المتوسط أشد جفافًا من الفترة الواقعة بين عامي 1600 و1800 على
الرغم من غياب فترات من الجفاف الشديد، وباستثناء ما حل بحسب تصاد في
ثالثينيات القرن التاسع عشر، فإن زيادة الرطوبة ظهرت مجددًا بين عامي
1870 و1895 ولكن الأحوال المناخية تدهورت في أواخر القرن التاسع عشر، وبلغ
هذا التدهور ذروته في فترة الجفاف التي شهدتها بداية القرن العشرين (3).
وتعد بحيرة تشاد مرآة تعكس الظروف المناخية التي يتعرض لها هذا الإقليم
من الساحل السوداني على أساس أن المغذي الرئيسي له هو نهر شاري -
لوجون، الذي يرفع منسوبه وينخفض تبعًا لحالة المطر، فقد تراوح ارتفاع سطح
ماء البحيرة بين 283 متراً عام 1923 و273 متراً عام 1948، وصوب ذلك
انكماش سطح البحيرة من 0.55 كم² إلى 0.6 كم² في العامين المذكورين (4).
وإذا كان البعض يذهب إلى أن تدهور بورنو كان ناتجًا عن إغارات الطوارق المستمرة للسيطرة على التجارة الصحراوية، فإن حدوث الكوارث الطبيعية والمجاعات الناتجة عن الجفاف كان له أثره أيضًا، وهو مما أدى إلى ثورة إقليم ماندارا، وكذلك استقلال باجرمة التي كانت تحت إدارتها. وذكر التاريخ أنه قد حدثت سبع سنين عجاف في عهد مأي دوناميا على (1661م - 1714م)، أعقبها عمان من المجاعات (1736م - 1747م) ومجاعة أخرى وصفت بأنها مجاعة شديدة الوطأة خلال حكم السلطان دوناميا جانا (1747م - 1760م). وكان لمقوم تشاد وما ترتبت عليه من تناغم لطرق التوافل الصحراوية على أرضها في العصور القديمة والوسطى، ومن قبل هذه الطرق الهجرات المختلفة للقبائل. كان لهذا كله أثره في أن عمرت تشاد بناصر متعددة، اختلط بعضها بعض، فتشتت نشر وتجمع، وإن كانت حركة السكان في تشاد بوجه عام هي حركة البدو وأشباه البدو الذين يعيشون في وسط وشمال تشاد، ذلك أن الممالك التي قامت حياتها على التجارة، أثرت ازدهارها أو عدم ازدهارها قبل وصول الاستعمار على مدى التماسك الداخلي في المملكة وعلى الغزوات الخارجية، وهو ما أدى إلى عدم الاستقرار في كثير من الأحيان، وكان يصبح هذا تزويرًا من مكان إلى آخر، ولا ينفي في هذا المجال هجرات المسلمين من غرب إفريقيا متجهين إلى الأراضي المقدسة عبر تشاد وصولًا إلى السودان والحجاز، واستقرار بعض منهم في تشاد، فتحولت إلى بوتقة تنصهر فيها الجماعات، ومن ثم تصبح تشاد إثنيًا ولغويًا، واجتماعيًا أشبه بحيرة من الفيضان.
البدو

البدو ومعناه: ناس المتو أو ناس الجبال، ويُقرون بنحو مائتي ألف نسمة يعيشون في مقاطعة Bet، وفي رأى البعض أنهم ينحدرون من أصول نيلية، وصلوا تسأسي خلال القرن السابع عشر، واعترقوا الإسلام في ذلك القرن أو القرن التالي له، وكان لهم دورهم الكبير في تأسيس مملكة كاثم، واعترقوا السوسية خلا ل القرن التاسع عشر، ولهما أقاربهم في فرانسيس وبعضهم علاقات وتجارة لعدة قرون.

ويتألف الضبع من عشرتين كبيرتين، وهما الدازا التي تعيش في مقاطعة بورقو، النياب، وهي عشرة الرئيس السابق هير، والنيابا، وعددها نحو 40 ألف نسمة، من بين أبنائها جوكوتي صوفيء الرئيس السابق أيضًا، وهم منتشرون ومعثورون، والنياب الذين يعتبرون أنهم الضبع الخلف هم الذين يختار منهم دائمًا الرئيس الروحي (derdi) وهم محبون للجريمة، حاملون للسلاح دائمًا، وفخريًا كانوا يستعبدون غيرهم للعمل لديهم، ويفضلون إثباتات على الجيران الضعفاء، وهم رعاة للصحراء والأغنام والإبل والخيل، ورحلاتهم طويلة قد تستغرق تسعًا اثني عشر يومًا، ثم يرجعون إلى قراهم يعيشون على النمر واللبن خلال فصل المطر القصير (ثلاثة شهور).

الصحراء مسرحهم، يتجولون بإبلهم في سمالي تشاد والصحاري المجاورة أيضًا في ليبيا والنيجر وأطراف السودان، ويطلق عليهم العرب الجرمان، وإن كانت هذه التسمية بدأت تختفي، ويشيرون إلى أنفسهم باسم التيدا أو الدازا، Dazaga وأو الدازجا Tedaga ويعتمد هذا على ما إذا كانوا يتكلمون تيداجا.
وهما لهجتان للغة واحدة من اللغات الصحراوية، ويعيش النيدا الذين يمثلون نحو 11% من السكان شمال غرب عرض 18 شمالاً تقريباً، والدازا جنوبه، كما يعيش في كنف النيدا نحو 5 آلاف من الكامادجا في بورقو مستقرين في الواحات يفلاحون الأرض ويربون الإبل

العرب، ويعرفون أحياناً باسم الشوا، وهم رعاة وأشخاص رعاة متجولون بقطعانهم في إقليم الساحل (الثلث الجنوبي) يتجهون شمالاً نحو أراضي النوبة إلى ما بعد خط 17 شمالاً، لتجنب المرتفعات في مقاطعات وادي وجوهرة، كما لا يتعدون في رحلاتهم جنوبًا خط عرض 10 شمالاً إلا في القسم الشمالي من هذا الإقليم حيث اختلطوا بالسكان المستقرين، وقد بلغت القبائل العربية تعداد من الشرق والشمال في القرن الرابع عشر، واستمرت في موجات متتابعة، وهم يقسمون إلى: جهينة، وحسونة، وأولاد سليمان، وأكبرهم عدداً جهينة نسبة إلى عبد الله الجهني أما الحسونة فهي سلالة حسن الغربي الذي ترك شبه الجزيرة العربية وأتى تشاد من الشمال عن طريق طرابلس، ويعيش الحسونة في تشاد إلى الشمال من نجامينا (مقاطعتا شاري / باجرم) .

أما أولاد سليمان فينسبون إلى سليمان الذي يقال إنه أحد أصحاب رسول الله ﷺ، وإنه أمر بنشر الإسلام في طرابلس، وتحت ضغط الحكم التركي اضطر أولاد سليمان إلى الهروب جنوبًا إلى فزان حيث ما زالت لهم روابط متعددة، ثم كانت هجرتهم بعد ذلك إلى مانجا شمال بحيرة تشاد. ويطلق عليهم أولاد سليمان القدماء تسميته لهم عن أولاد سليمان المحدثين الذين طاردهم الإيطاليون فل주وا إلى فزان في الفترة 1928-1930، ويعيشون في مقاطعة كائن شمال مانجا بين الدازا الذين تواجوا منهم .
وجميع العرب في تشاد باستثناء أولاد سليمان المحدثين كانوا تحت سلطة
الإمارات المختلفة التي كانت موجودة في العصور الوسطى من وادي إل إلى كام،
yدفون الضرائب للسلطة المهيمنة، وإذا ما وجدوا ضغطا أو لم يستطعوا
تحيزوا إلى أماكن أخرى يحسون أنها أكثر ملاءمة لهم، ولابد أن تحدث
إختصاصات وتشققات في القبيلة الواحدة بطبيعة الحال أثناء الحركة(8).

ويعيش معظم العرب التشادين في نطاق الوسط الجنوبي (ملكة بورونو / ـ
كانم سابقا) ووادي وبايروني، ويقدر عددهم بنحو 1,5 مليون نسمة ومعظمهم
من الرعاة والرعاة أشياء المستقرين، ومنهم من تحول إلى الرعي. وقد احتفظوا
بثقافةهم ودينهم ولغتهم، ولكنهم مع ذلك اختلطوا بالسكان ولم يعيشوا في عزلة
عن جيرانهم. ويمتلك العرب قدرة عظيمة من الثروة الحيوانية في تشاد. يرون الإبل
والخيل والماشية والماعز والأغنام ومعظم حيوانهم جنوب درجة عرض 14° من
الأفقار، من نوع الزيبو القصير القرون، والبقر هنا أكثر من الإبل لغير الظروف
المناخية. والرعاية من العرب يقطعون آلاف الكيلومترات كل عام بحثًا عن
المراعى، وهم في الوقت نفسه يمثلون نحو 70% من سكان نجامينا وسعود
قطاع الأعمال(4)، ومن ثم نشاطهم وتأثيرهم يفوق بكثير نسبتهم العددية، كما
أن اللغة العربية أكثر اللغات انتشارا.

وعرب تشاد مسلمون ينتمون إلى الطرقة النجاحية، فيما عدا أولاد سليمان
وي بعض القطاعات العربية في وادى الذين ينتمون إلى السنيوية.
الفصولا أو الفولاني: يعيش شعب الفولاني في نطاق الساحل في إفريقيا
الغربية بعامة، غير أن تدفعهم بأعداد كبيرة كان منذ أواخر القرن التاسع عشر
وعشرينيات القرن العشرين. منهم البدو الرعاة، ومنهم الزراع المستقرون
ويعيشون دائمًا مجتمعًا مستقلًا وسط الجماعات الأخرى، وقدر عددهم بنحو 32 ألف نسمة في منتصف العشرينات، ويعيش معظمهم في كام وجنوب البطحاء وشمال الخارج حيث يزعم أن يكون الزيبو والأغلام وأحيانا الإيل، كما أن منهم زعاء أنصاف مستقيمين، وفي المدن يعملون بالتجارة وهم مسلمون معروضين بالإسلامهم، ويعمل عدد منهم مسلمين للقرآن.

ويتمي إلى الفولاني عرقيا ولغويًا الممرورو الرعاة، وهم في حركة دائمة لا يستفلون أكثر من ثلاثة أيام في مكان ما، وتقتصر حركتهم على الإقليم الواقع بين درجات 10، 15 شمالًا في غرب تشاش، ويستقلون في فصل الجفاف في إقليم يوجور في مقاطعة مايوكينسي، ويتكونون من الأمطار المبكرة إلى الإقليم الواقع شمال بحيرة تشاد، وهم محاطون على تقاليدهم، ولا يختلطون، ولا يزوجون إلا من الفولاني، والفولاني أنظمتهم الكثير في تشر الإسلام في إقليمية الغرابة بعامة، ولا يمكن أن يكون تاريخ الإسلام هناك إلا أن يذكر الفولاني وحركة الجهاد الإسلامي التي عمت الإقليم خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وحركة المهدية في السودان في أواخر ذلك القرن، التي أدت إلى هجرات متتابعة من الفولاني نحو السودان.

وتدور فكرة المهدية حول أنه سبأني في آخر الزمان المهدي أو المخلص المنتظر فيهم الأرض العليا وسلطة عدلها بعد أن تلقت ظلمًا وجورًا، ولم أبت ذكر المهدي في القرن ولا الحديث سوى في بعض ما ذكره الترمذي وابن ماجة، ولكن على العموم انتشرت الفكرة على المستوى الشعبي، وأصبحنا نسمع بها في التاريخ الإسلامي كلما حدث تدهور في الأوضاع الدينية أو السياسية، فيعتقد الناس أن المهدي سيظهر لإصلاح حال الأمة وإعادتها إلى الطريق الصحيح ولو
لزم الأمر بالقوة، وهي قريبة من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود والمسيحيين. وقد تبنى الفكر الشيوعي هذه الفكرة بعد اغتصاب الأمويين الخلافة من على وينيه، ولكن سرعان ما انتشرت عند السنة. وهي عند السنة مرتبطة بالإمام المعصوم، وأنه لابد أن يكون من أهل بيت رسول الله ﷺ، ولكن المهدى عند السنة ليس إلا مصلحًا دينيًا بعيد حال الأمة إلى ما كانت عليه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين من تقوى.

وفي النطاق السوداني الذي يعني تظاهر الفكر بفهوم السنة، وقد تمثلت حركات الإصلاح الدينى في هذا النطاق في جهاد الفولاني في أوائل القرن التاسع عشر، ومهدية السودان فعّل في آخره. ومن هنا كان النقل بأن مهدية السودان قد تأثرت بجهاد الفولاني، وكانت صيما في قيمها، وأن هذه الأخيرة بحثت عن الدعم والتوعية خارج السودان بصفة رئيسية في حوض النيل وتشاد. وكان تأثير إمبراطورية سكوتو على مهدية السودان تأتي فكرية، فقد كان الشيخ عثمان ولد محمد بن الله وأخوه عبد الله يجيدون العربية ولهم معرفة واسعة في العلوم الإسلامية، وفي كتبه التي بلغت 258 كتابا ما بين كبير الحجم وصغيره، نجد مادة غزيرة تتصل بالمهدى المنتظر، وإن كان الشيخ عثمان قد أنكر بناتاً أنه المهدى المنتظر، لأن من شروط المهدى أن يكون من سلالة أهل البيت، والشيخ عثمان ليس كذلك، ومن شروط أنه أن يكون قد ولد في المدينة، والشيخ عثمان ولد في ماران، ورغم أن الشيخ نفى عن نفسه هذا، فقد

* أرتبط الجهاد الإسلامي في النطاق السوداني بأسма الشيخ عثمان بن فودوا (1877 م)، في إقليم الهوي، والشيخ سيكو أحمد، في ماسينا (1843 م)، والحاج عمر (1864 م)، في إقليم اليمام.
روج لنبوة المهدي (37).

والنقطة الرئيسيّة في هذه النبوة لدى الفولاني أن المهدي سوف يظهر في الشرق، وأنه سيسبيّق ظهوره فترات من الجفاف والحروب الأهلية والاضطرابات في إقليم المغرب، وتشاد/النيجر، وتكون النتائج الهجرة والنزوح بأعداد غفيرة إلى وادي النيل والحجاز.

وقد حدث هذا مبكراً منذ أيام أمير المؤمنين أبو بكر أنّيكون (1827-1842م) نظراً لحدوث اضطرابات في إمارة سكوتوم، ومن ثم بدأت الجماعات تتحرك تلو الجماعات مغادرة الإمارة متجهة نحو الشرق إلى وادي النيل متوئمين مقابلة المهدي المنتظر، وهو مما سبب كثيراً من الفوضى والهرج، ودعا السلطان إلى إصدار بيان: «بأن ميعاد الهجرة والخروج إلى المهدي لم يحن بعد ما دام هناك أناس صالحين يعيشون بيتنا».

والظاهر أنه كلما حدثت اضطرابات، خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تتحرك هجرات بأعداد كبيرة من إمارة سكوتوم نحو الشرق إلى السودان والحجاز.

وكانت أخرى هجرة لهم لهذا السبب بعد انتصار الإنجليز في نيجيريا ودخولهم شمالي البلاد حيث إمارة سكوتوم، وكانت هناك دعوة لمغادرة الإمارة بعد أن جاءها غير المؤمنين (1902-1903م)، وكان يتفقدهم سلطانهم الذي تجمع معه خلق كبير في بورمي التابعة لإمارة جومي، Attahier أتاهير، وكان هذه الإمارة تحت زعامة المعلم عبد الله وهو فولاني من أتباع مهدية السودان (17).
أشباه المستقرن

يتمثل المابا Maba والعناصر الأخرى التي ينتسب إليها العنصر الرئيسي الثالث في تشاد (20 ألف نسمة)، ويحتلون مساحة واسعة في مقاطعة واداي وأجزاء من بيليلت، وأكبر تركز لهم حول أبشييه، ثم يقل تركيزهم ويزيد اختلافهم بغيرهم حتى يصلوا إلى خط العرض التاسع عشر في الغرب وحدود السودان في الشرق، وقد طبعوا جميع السكان الذين وصلوا إلى إقليمهم حتى الحكام العرب الذين تولوا السلطة في الإقليم بطبعهم، وكانوا يتخذون دائمًا إحدى زوجاتهم من المابا، ومن ثم لم يوجد من كان في وسط واداي إلا ويمت Bora Mabange إليهم بقرابة، ولهم فروع عدة ولكنهم يتكلمون بورا مابنج
Maba بلغة بورا، وهي فرع من اللغات النيلية الصحراوية، ولا يعرف سكان المرتفعات سوى هذه اللغة وإن كان سكان الشهول يتكلمون اللغة العربية إلى جانب تلك اللغة، وهم يحبون حياة رعي وزراعة ولا غروこれが يعيشون في الإقليم الانتقالية بين الجاف والرطبة، بين حياة الرحلة الانتقال. ومن الطريق أنهم حين وجدوا أنفسهم في الماضي يمكنون أسرافًا، أطفوا العمل البدوي، واستخدموا غيرهم لهذا الغرض، وهم مسلمون يرجعون أصولهم إلى السودان والمغرب.

الداجو: أول سادة إقليم واداي، يقسمون إلى مجموعتين رئيسيتين

إحداهما جنوب واداي في أم دام، والأخرى في سهول جويرا وجبال أبو قلنان على درجة عرض 19 ومركزاً قوز البيضاء، ويتبادلون الخدمات مع عرب السهبية في السودان حين يعبرون الحدود، وقد اعترفوا الإسلام ويتكلمون العربية.

المصالحة: يقيمون إلى الشرق من إقليم المابا وبتوغلون في الحدود
السودانية بين درجتي عرض 12 و 14 شمالاً. ويعيش المساليت مستقرين بالقرب من القسم الأكبر منهم الذي يعيش في السودان، ويتكلمون لهجة خاصة بهم، ومن المحتمل أنها تنتمي إلى لغة بورا مابانج. يبنون مساكنهم فوق التلال، وهم مسلمون، وهناك أيضًا أسونجوري، والماريوت، والثابا، والزوغة والبدايات: ومواطنهم بين درجتي عرض 15 و 17 شمالاً على وجه القريب، وكانوا ينظرون أنفسهم على هيئة إمارات، ويعتقد أن الأسرة الحاكمة فيها ترجع إلى الداجو. وهم من أشباه البدو يجمعون بين الزراعة ورعي الإبل، يتكلمون لغتهم الصحراوية ولكنهم يجيدون العربية، ولهم دور كبير في تاريخ تفشي واقتصادها في العصور الوسطى؛ لأنهم كانوا مستاؤوا بدرجة كبيرة عن تأمين التجارة والحركة على الطرق الصحراوية، فضلًا عن قيامهم بالتجارة ذاتها، فهم صناعته القسم الشرقي من الصحراء الغربية، ولهم فرع يعيش في الجنوب بالقرب من أبيشية، يتصادمون بأقrajهم في دارفور، كما أنهم على صلة بقبيلة المحاميد العربية ( فرع من جهينة )، يتبادلون معا أثناء تحركاتهم السنوية.

وقد سبق أن ذكرنا أنه كلما حدثت اضطرابات في النطاق السوداني من غربي إفريقيا خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت تتقدم أعداد كبيرة من إمبراطورية سكوتون إلى السودان والحجاز، ولا تأتي سهولة هذه الهجرات إلا ويدرك الزواغة الذين كانوا يسيطرون ويتحكمون في الحركة بين النيل وتشاد والسودان، ويقول عنهم البعوضي:

"فيما يختص بالسودانيين الذين يتجهون إلى الشرق كانوا يعبرون مسافات كبيرة وممالك متعددة; أول هذه الممالك هي مملكة الزواغة الذين يستوطنون في مكان يطلق عليه كائم. ويستمر البعوضي في قوله بأن "مملكة الزواغة، يقال إنها..."
أكبر الممالك في إقليم السودان، فإلى الشرق منها هي مملكة النووا (جنوب مصر وشمال السودان)، بين الملوكتين مسافة تقدر بنحو 10 أيام. والزغابة قبائل متعددة، وطول بلادهم نحو 15 يوماً. ولا شك أن لين الإفريقي يشير إلى الزغابة حين يتكلم عن الزنجاني الذين يطلق عليهم أحياناً الجرحاء، ومن ثم يمكن القول ومن واقع الكتابات عنهم إن الزغابة خلال العصور الوسطى كانوا يسودون جميع الأراضي بين بحيرة تشاد ودارفور وشمالاً إلى صحراء شمال السودان، وكانوا يتحكمون في طرق القوافل التي تصل إلى الثوبية وطرابلس ومصر. والأمر الذي يسترى النظر في كل من كتب عن هذه المنطقة في العصور الوسطى أن الاتصالات والحركة كانت مستمرة على طول الطرق بين النيل وتشاد والسودان، وربما لأبعد من ذلك بكثير خلال العصور القديمة، وقد كانت دارفور في أواخر القرن التاسع عشر جزءاً من إقليم النيل وتشاد، فالسلطان بللو كان يعد دارفور ضمن إقليم التكروي.

الكابشو: يعيش شعوب الكابشو (50 ألفًا) في مقاطعة كاني، كما ينتشرون بكثافة خارج مقاطعتهم في مقاطعات لاك (البحيرة) وشارى باجريرى، ويعدون ماديوجوري عاصمة لهم، كما أنهم على صلة وثيقة بكابورى شمال نيجيريا، فالكنائرو المهاجرون نحو الشرق كان لابد لهم أن يعررو بأراضي الكابشو، وهم مزارعون ماهرزون، فضلًا عن استغلالهم لمنحهم المتروق الواقعة في جنوب غربي المقاطعة، ويتكلمون لهجة خاصة من اللغات الصحراوية، ولكنهم يجيدون العربية، بل أحيانًا يكتبون لغتهم بالاستعانة بالأبجدية العربية.

وتعتبر لغة الكابشو لغة تفاهم مشتركة في كل مقاطعة كابشو.

ومن أشباه البدو أيضًا: سانجوري، ومراري، ودامو شارب، والثام.
والمسالات، ومومي، ويلالا، ووجواري، وحاداد، وباجرمي، ويودوما،
وكوري، وكوتوكو (15)

المستقرعون

أكبر المجموعات السكانية تعيش في نطاق الجنوب وتبعد نحو ثلاث سكان
تشاد، ويشير هؤلاء بتقية خاصة في محافظة شارى الأوسط وولوجن الشرقية
ولوجن الغربة ودانة جيل، كما ينحدرون إلى جمهورية إفريقيا الوسطى. يتألفون
من 12 عشيرة (جاماباي) أكبرها: مناي، وجولاي، وجدنجاي (السارا
الخليص) والكابي، ونيول، والغاب داني ماجان. والسارا طبقا لقسمية جربرج
ليسو من البانتو بل هم نيليون استقروا في تشاد في القرن السادس عشر، وقد
كان امتدادهم أكثر نحو الشمال، ثم هاجر نحو الجنوب تحت ضغط العرب في
الشمال. ووصف الفرنسي لهم هو La belle race. وهم يكملون لغة السارا التي تعد لغة
الرقيق في نظير عدم الإغارة على أراضيهم، وهم يكملون لغة السارا التي تعد لغة
تفاهم مشتركة في جنوبي تشاد، وتعد موطن عاصمتهم المحلية، وكان الرئيس
الأسبق لتتشاد تومبالاي من أبناء السارا، وهو مهارة في الزراعة يقومون بزراعة
القطن إلى جانب محاصيلهم الغذائية وكما كان السارا في فترة الاحتلال الفرنسي
يختلفون العقود القصيرة الفرقة الفرنسية في إفريقيا الاستعمارية، وهو يحتفظون
بكثير من معتقداتهم الدينية التقليدية، ودخلت المسيحية أرضهم لأن القوات
الفرنسية دخلت تشاد من الجنوب، وهناك أقليات كبيرة الحجم نسبيا اعتنقت
المسيحية، تلتها من الرومان الكاثوليك، والباقي من البروتستانت. ومن
الجماعات الجنوبية المستقرة أيضا نجد الماسا / التوروي، والموندات، والموبو.
لهان تتشاد أم ألبانتها؟

لو أنك كنت أدرت مؤشر المذباع على إذاعة تشاد عام ١٩٧٢ وقضيت يوما بالكامل مستمعاً إلى نشرات الأخبار وجدت أنك ذيعها خمس مرات باللغة الفرنسية، وثلاث مرات باللغة العربية، وثلاث مرات بلغة سارا، ومرة بلغات كل من الجرمان، والكاميرو، والنيجر، والرواندا، والقولي.

يرى معظم الأثريولوجيين أن هناك ١١٠ لغة تتكلمها أبناء تشاد، في نحو ٢٠٠ مجموعة عرقية، ويبدو الآن أن هناك اتفاقاً على أن هناك ٨٥ لغة يمكن تميزها، وأن ١% أو نحو ذلك منها ما زالت غير مميزة، وعلى العموم إذا صح هذا، فمعناها أن تصبح لكل مجموعة لغتها الخاصة، وإن كان البعض يخلط فيطلق لفظ لغات على اللهجات. وعلى العموم فهذة قضية علماء اللغات الذين يهتمون بشاد، فيعكفون على إعطاء التفاصيل، وإن كانت الصورة العامة هي وضع اللغات التشادية تحت أربع مجموعات هي:

- مجموعة اللغات السودانية: وهي التي تتكلمها جماعات سارا، والتشوري، وربان، وماوانيو، وبارماجي، وبيكونا، ورونايل، Tupuri.
- مجموعة اللغات النييلية: وتشتت اللغات المتغيرة مثل: وادا، وكودوي، والمالانج، وماكابا، ودبا، والبراء، وابوسيمو، وموزي، وكاري، ومسيمي، والبابلية، وديونجور، وسابا، وربان، وتنجور، والتروم، ودكر، ودجا، وماسالتي، وليزي.(١)
- المجموعة العربية: وتشمل الحسونة،
المجموعة الصحراوية: وتشمل الكانمبو، والتوريو.

وهنا نستدرك ونقول: إذا كانت تتشابه تضم الأفقرة العرب والأفقرة غير العرب، فإن العربية قد اجتاحتها أولًا نتيجة الهجرات العربية التي ترجع أصولها إلى شبه الجزيرة العربية، وثانياً نتيجة التأثير البيولوجي، وذلك من خلال تزاوج العرب بالأفقرة، ولا إكراه إلا أن هذا حدث على نطاق كبير، وثالثاً بالتأثير اللغوي باستخدام اللغة العربية لغة تخطيط وتعامل، أو عن طريق تطعيم اللغات المحلية بالأشكال وكلمات عربية(14)، وربما صبح القول مع كاتب مثل الجاحظ بأن الشخص يعد عربي حتى ولو انحدر من أصل أعجمي، ما دام يتخذ العربية لغة له، وفي هذا الصدد يقول: «وقد جعل الله إسماعيل عليه السلام وهو ابن أعجمين عربا لأن الله تعالى فق له لسانه بالعربية المبينة».

إذن فالتأثير العربي المتعلق باللغة لا يقتصر على ذوي الأصول العربية من شبه الجزيرة، خاصة أن العرب حين هاجروا كانوا رعاة أي أهل حركة؛ حركة الإبل في شمال تشاد، وحركة البقري في وسط تشاد، حيث تحولوا إلى رعاة بقر نظرا لأن بيئة القسم الجنوبي لا تلائم حياة الإبل من حيث ارتفاع درجة الرطوبة، تمامًا كما حدث في السودان وادي النيل، حتى أطلق لفظ «البقارة» على العرب الذين تركوا رعي الإبل في غربي السودان، وأخيرًا وليس آخرًا تشاطهم الاقتصادي الواصل الذي يقول عنه الباحثون (الأجانب) إنه يتعدى حجمهم.

واتنقلت التأثيرات العربية لغة أو دينا إلى الجنوب، وتمثلت في أن الرعاة أصبحوا يزرون إلى جانب رعيهم، والزراع أصبحوا يرون الماشية، وأدى هذا كله إلى ظهور لجنة(15)، يطلق عليها توركو وهي نوع من العرية Turku تعد لغات تفاهم مشترك في كل وسط تشاد وجنوبه، ويطلق عليها Pidgin Arab
اللغة التشادية (32)

وعلى الرغم من أن الاستعمار الفرنسي اختار لغة 롤ت النامية لتشاد، فإن نسبة من يرتن بالفرنسية ويكتبها نسبة ضئيلة للغاية، وهي لغة التي تعلمها في مدارس البعثات التشادية كما سنذكر فيما بعد، وتضيق اللغة العربية هي لغة الغالبية وأكاد أقول لغة الكثافة من أبناء تشاد، ومع ذلك نتيجة للإثر الاستعماري الطويل لم تدخل اللغة العربية لغة رسمية ثانية إلا في الثمانينيات.

تشاد الحديقة الخلفية لأفريقيا الاستوائية الفرنسية لموقعها المتطرف

وقلنا مواردها:

من المعروف أنه قبل وصول الفرنسيين إلى تشاد كانت هناك مشيخات تطورت المشيخات إلى ممالك في كل نطاق السودان، وكان من أهمها بالنسبة لموضوعنا: كائم، ويوترو، وباجرى، واحد. وكان أساس قوة هذه الممالك حركة التجارة، وتمتékزاز هذه الممالك وعدم ازدهارها على مدى التماسك الداخلي في المملكة، كما توقف على الزوايا الخارجية، وهو مما أدى إلى حالة عدم استقرار مستمرة. وقد شكل التكامل بين مملكتي بورنو وباجمري عندما وصل الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر، وقبل التقدم الفرنسي بمقاومة من مملكة واداى، في حين لم يعد قادة بورنو وباجرى الفرنسيين غزاة، بل عدوهم بمثابة عنصر توازن ضد واداى التي كانت تهدهم.

وكانت مشاركة التشاديين في الإدارة الفرنسية هامشية وضئيلة، بل ظللت المتطلبات التعليمية لهذا الإسهاد نكاد تكون معدومة حتى عام 1955م (33).

وإذا ذكر الشمال والوسط ذكر السلاطين والرؤساء المحليين، ولم تكن
فهي تحتضن السياسة العامة التي اتبعت أغلبهم وسلطهم وال되었습니다 على إدارة رؤاهم أحيانا تحت الإدارة الفرنسية إذا كانوا قريبا من مراكز الإدارة.
وعلى الرغم من أن السياسة الفرنسية بوجه عام كانت تهدف إلى تقديم سلطة الرؤساء المحليين؛ فإنها استمرت في تدشين على البنية الإدارية التقليدية بدرجة كبيرة، وكان هذا يصف خصائصا في شمال البلاد حيث يشغل البدو معظمها، وكانت في الوقت نفسه بعيدا جدا عرقا عن مراكز الإدارة الفرنسية في الجنوب.
وإذا كانت المناطق الجنوبية قد حضرت تماما للسيطرة الفرنسية فإن القسم الأوسط لم تم السيطرة عليه رسميا إلا في عام 1924 م، أما القسم الشمالي فقد ظل يمثل إزعاجا مستمرا، وكانت عملية السيطرة العملية على عملية ضعيفة واقتصرت الإدارة من الناحية العملية على الحضر ومناطق المشروعات الزراعية الإجبارية في جنوب البلاد. هذا وقد تمت إدارة تشاد بعد عام 1930 م بوصفها إقليميا داخل الاتحاد الفيدرالي لإفريقيا الاستوائية الفرنسية، ولكن الاهتمام الفرنسي كان أكبر بجزاء أخرى من الاتحاد. كان كالمروج وجبان بسب وورة مواردها الطبيعية نسبة عن تشاد.
وقد وضعت مستودع الإدارة في تشاد مع جابون وأويبيشي شاري، والكفو الأوسط تحت إمرة حاكم عام مركز يعده في الاتصال الفيدرالي لإفريقيا الاستوائية وقد Feder. of French Equat. AF. (AEA: AF. Equatovial Francaise).
تشكل الاتحاد الفيدرالي لإفريقيا الاستوائية على غرار الاتحاد الفيدرالي الفرنسي لإفريقيا الغربية، ولم يأخذ في الحساب الاختلاف بين الإقليمين (11). ثم ما لبث أن أخذت وضعها بوصفها مستعمرة عام 1920 م.
وكان الحاكم العام للاتحاد يُعين بواسطة الحكومة الفرنسية، وله سلطات إدارية واسعة على الاتحاد فيما يتعلق بالخدمات المدنية، والحرية، القضائية، والاتصالات مع وزير المستعمرات، وإلى جانب اختصاصاته من حيث الأمن الداخلي والدفاع الخارجي هو المسؤول عن الأمور الاقتصادية والمالية داخل الاتحاد. وتحت قيادة الحاكم العام، كان هناك أربعة نواب، في كل مستعمرة واحد منهم.

وكان Adminis. Counsil هذا ويعاون الحاكم العام مجلس إداري.

البناء الإداري في كل مستعمرة من المستعمرات الأربعة يشكل تشكيلة طبق الأصل من البناة في برازافيل، من حيث وجود السكرتير العام ومجلس اشتراكي. وعلى الرغم من أن نواب الحاكم العام للاتحاد لهم الحق في إدارة ميزانيتهم كما هو الحال في بقية المستعمرات، فقد كان هناك تحكم كامل من الحكومة المركزية في برازافيل، حتى تحول حكام المستعمرات في الثلاثينات إلى مجرد مندوبيين عن الحاكم العام في تنفيذ التعليمات برازافيل. وعلى الرغم من أن الحكم العسكري تحول إلى حكم مدني وحدثت تغييرات في الحدود وأسماء الأماكن وحجم الوحدات الإدارية، فإن بقية برازافيل ظلت قوية على المستعمرات الأربعة، ولم تظهر اللامركزية حتى الحرب العالمية الثانية (33).

وأعطيت صلاحيات واسعة لحاكم تشاد لوضع سياسة محلية أكثر مما أعطى لحكام المستعمرات الأخرى في الاتحاد، وذلك لأن الحاكم العام في برازافيل كان مشغولاً بصفة رئيسية تنمية خط السكك الحديدية الذي يصل إلى المحيط، فضلاً عن العوائد الناتجة عن استغلال المستعمرات الرئيسية، فهي بالطبع أهم من الشؤون الإدارية في تشاد، أي أن تشاد كانت في الحديقة الخلفية.
بالنسبة لاتحاد إفريقية الاستوائية الفرنسية. وبعد الحرب العالمية الثانية وطبقا لدستور 1946م أصبحت تشاد مستعمرات الاتحاد الأخرى، أقاليم، Overseas Territories of France، فرنسية فيما وراء البحار، فأصبح كل المواطنين رعايا فرنسيين، وأصبح كل قطر له الحق في انتخاب مجلس له سلطات محدودة، يترشح بدوره ممثلين عنه لمجلس فرنسي عام Assembly لكل أقطار الاتحاد. وظل هذا الوضع مع تغيرات بسيطة حتى عام 1957م. كما أصبح لكل إقليم الحق في انتخاب ممثليه في الأجهزة التيازية الفرنسية بما في ذلك المجلس الوطني، و مجلس الجمهورية، National Assembly، ومجلس الاتحاد الفرنسي، French Union، ومجلس الاتحاد الفرنسي، of the Rep. تغير في تتسلسل السلطة، فكل القرارات تصدر من باريس. وظلت فرنسا تعالج اتحاد إفريقية الاستوائية، وأتحاد غرب إفريقية الفرنسى كأنهما شيء واحد على الرغم من الاختلافات، ولم تكن هناك أي محاولات لتدريب التشاديين على الخدمة المدنية حتى عام 1955م، حينما أرسل البعض إلى فرنسا للتدريب الإداري لعبدهم بعد ذلك بعقود، واستمر الاعتماد على الفرنسيين للفظين الإدارة والفنية حتى الاستقلال (1).

كان التوسع الفرنسي في تشاد جزءاً من عملية التوسع الأولى في ذلك الحين، فقد كان السبق على إقامة المحطات التجارية ومحطات التنزويز بالوقود على طول ساحل جابون خلال أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، كما كان هناك بعض الاكتشافات في السينين والسبعينيات من ذلك القرن. وزاد
شكل (5)
شكل (٧)
الاهتمام بالحركة الاستعمارية بعد أن أشارت التقارير إلى العاج والمنطقة التي يمكن الحصول عليها بوفرة.

ولم يقم مؤتمر برلين (1884 - 1885) الذي دعا إلى تسوية النزاعات وادعاءات الدول الأوروبية - بتهديد الأحول، بل عمل على إنشاء المنافسة بين القوى الأوروبية كموجات جديدة من المنافسة بين القوى الاستعمارية، وبدأ الاعتراف بمناطق النفوذ على أساس الوجود العسكري، وألغيت تقريبًا سياسة حرية التجارة التي نادوا بها سابقًا، ثم كانت الخطوة التالية مرتبطه بظهور قنات السوس التي كان من تناجها قلة الاهتمام بصيانة مَيناء اليوس، وأنهاء الأرباح الناتجة عن تجارة الرقيق، كما كانت الإشاعات عن ثروات المناطق الداخلية عامل جذب للمتوغل في بطن القارة.

ادعى الفرنسيون عام 1887 أن الإقليم الواقع شمال نهر أوبياجي هو منطقة Sovorgan de Braza نفوذ فرنسي، وكان التوسع الفرنسي حينذاك تحت فداء الذي كان يخطط لإقامة إمبراطورية تضم كل غرب إفريقيا التي تقع تحت النفوذ الفرنسي مع الجزائر، مع المنطقة الواقعة شمال نهر الكنو، ومن ثم تعد تشايد في مركز هذا الإقليم أي واسطة العدل، وبالفعل احتلت القوات الفرنسية إقليم Bangui أوبياجي شارئ عام 1889، وأقاموا لها مركزاً عسكرياً في بانجي وكانت محاولات التقدم نحو الشمال الغربي أو الشمال الشرقي معننا الاستغلال بالمصالح البريطانية والألمانية، ومن ثم اضطرت فرنسا عام 1890 إلى الاشتراف بالمصالح البريطانية والألمانية والاقتراح في توسعها على الشواطئ الشرقية لبحرية تشاد، وأرسل الفرنسيون بعثتين بين عامي 1890 و1893 للتوغل في تشاد، ثم وقع سلطان باجرمَي معاهدة معهم بمقتضىها وضع سلطته تحت حمايتهم. وبعد
ذلك بعامين تحدثت مناطق النفوذ الفرنسية بمقتضى اتفاق في مؤتمر دولي بعد المواجهة الفرنسية البريطانية في فاشودة، فضمت واداي إلى منطقة النفوذ الفرنسي، وإن ظل هذا الإقليم من الناحية الفعلية مستقلًا حتى عام 1904م. ومع بداية القرن العشرين وقعت كلام أيضًا اتفاقية حماية. وتوقف مد النفوذ الفرنسي وإفلاس الإقليم بكامله على القضاء على رابح الذي كان قوة يتمتد إلى كأم وورنو وباجرمي وواداي. وبعد اشتباكات عدة غير ناجحة، وُضعت خطة للقضاء عليه بوساطة ثلاث قوات: إحداها من إحدى الواجهات الجزائرية، والثانية من إقليم النيجير، والثالثة من الأغفو، واستطاعت بالفعل القضاء على رابح في 21 أبريل 1900م حين قُتل في معركة فوسيرى. وأصاب رابح، لم تستقر الأمور في مختلف أقاليم تتشاد سوى عام 1915م، ولم تظهر إدارة فعلية لكل الإقليم إلا بعد ذلك بخمس سنوات. وكان النفوذ والسلطة الفرنسية قوية في الجنوب، وقلت تلك السلطة تدريجيًا في الشمال. كما وضع غير المسلمين الذين كانوا في حماية سلطان باجرمي تحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية مباشرة القائمة في أوبانجي شارى حتى عام 1946م. وكان الإقليم الأوسط يضم محميات كائم وباجرمي فضلاً عن واداي الأقل خضوعًا. أما الإقليم الشمالي ويشمل أقاليم: بورمو وإندو وتمنست، وهي الأقاليم التي جمعت معا من الناحية الإدارية وإن كانت لم تحتل بواسطة الفرنسيين إلا عام 1914م. فإنه حتى بعد استقلال تتشاد عام 1960م كان تحت إدارة عسكرية أكثر منها مدنية إدارية.

وفي الحق تمت السيطرة على باترمو على خطوات بدأت بتقية معايدة 1897م التي وضعها بمقتضىها باباجرمي تحت الحماية الفرنسية مع الإبقاء على
السلطان، تم كانت عدة اتفاقيات أخرى بهدف القضاء على الربح الزبير، وهي
الاتفاقيات التي أخذت تقلل من سلطة السلطان، ومنها موافقة السلطان على عدم
التجارة في الرقيق، وسحب ادعاءاته الخاصة بالضفة اليسرى لنهر شاري. ونتيجة
لهذا منح راتب قدره 100 ألف فرنك فرنسى، ثم أخذ هذا المرتب يقلص سنويا
بحجة أن السلطان لا يلتزم بوعوده، كذلك خفضت الضرائب التي كان يجمعها
السلطان من الرعية على أساس أنها تمثل عبنا على الرعية. وفي عام 1915م
أقيمت إدارية مدنية مستقلة عن الضرائب المباشرة والقضاء، ومن ثم انتهى نفوذ
السلطان تدريجيًا.

إسلام تشاد

كتب عام 1899م، أى في فجر الحركة الاستعمارية، Anson Atterbury
أن الإسلام في إفريقيا سهل للمسيحية أن تقضي عليه. وقد شارك هذا الكاتب
الأمريكي كثير من الكتاب الأوروبيين في تلك الفترة المبكرة يقولهم: إن الإسلام
لا شيء بدون القوة السياسية. وكتب بول ماري Paul Marty عام 1912م، وهو
من المتخصصين في الإسلام في إفريقيا الغربية عن الحركة المريدية في السنغال،
يقول: إن الإخوان المسلمين هؤلاء لن يكون لهم بناء بعد موت مؤسس
جماعتهم. وعلى الرغم من ذلك فإن اتباع هذه الطريقة يبلغ عددهم اليوم في
السنغال أكثر من نصف مليون نسمة.

هكذا كان اعتقاد المراكزي الأوروبيين، بعد إخضاع سكان المستعمرات
عسكريا، أن الإسلام قد تلقى ضربة ولن تقوم له قائمة بعد ذلك، فقد تغلبت
فرنسا على قادة مثل: مابا، وساموري، Maba، وحمود الأمين،
وتغلبت من قبل على مملكة التكرور.
والآن وبعد مرور قرن من الاستعمار ظهر أن هذه التنبؤات كانت خاطئة، أو جانبها الصواب، فقد تقدم الإسلام بخطى ثابتة وانتشار أكثر من القرون السابقة للاستعمار، فقد تضاعف عدد المسلمين على الأقل، وقدر أن كل فرد تحول إلى المسيحية، كان في مقابلة 9 تحولوا إلى الإسلام، وقدر في عام 1977 أن عدد المسلمين في القارة بلغ 1.09 مليار نسمة في مقابل 98 مليون مسيحي، ويمثل المسلمون أغلبية في السنغال ومالي وغينيا ونيجر وتشاد والصومال، وعلى عكس الإسلام بدأ نمو المسيحية يخطي خاصة في بقاع الكنائس المسيحية.

يذهب البعض إلى أن انتشار الإسلام لم يتم إلا باستخدام السيف أو القوة، بمعنى أنه مع كل ضربة سيف تظهر المؤسسات الرسمية وتطبيق الشريعة الإسلامية، وهذا هو رأى الغرب أو غير المسلمين بوجه عام إلا فيما ندر، ولكننا كنا نعرف أنه حتى بعد الفتح لم يكن هناك إجبار على الدين، ففى مصر مثلا بعد دخول عمرو بن العاص لم يُجبر أحد على دخول الإسلام، وكان يمكن لغير المسلم أن يحافظ بعفوية في مقابل أن يدفع الجزية، وهذه ضرورة للدفاع عنه.

وفي محاولة لرفع الروح المعنوية يقول "كواه يدياكو" عن أندرو ولز في مقالة في مجلة الفكر المسيحي الإفريقية: "كان المسيحيين في أوروبا - بما فيها روسيا وأمريكا الشمالية - يمثلون 3% من مسيحي العالم عام 1900 م، في حين أن مسيحي إفريقية لم يكونوا يمثلون سوى 2%، ولكن نصف مسيحي العالم في يومنا هذا يعيشون في القارات الجنوبية - إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية والأقيانوسية (75)، وتظهر المعطيات في محاولة اللعب بالأرقام - أليس الأجدر بهذا الباحث أن يعطي لنا نصيب إفريقية الآن حتى تصبح المقارنة صحيحة.

- 39 -
شكل (8)
لأنه أعطانا نصيب إفريقيا (2%) عام 1900م، ثم أدخلها ضمنا مع قارات أخرى، لماذا لم يعط لنا نسبة إفريقيا وحدها؟ هي المعادلة لا شك. أما الطريقة الأخرى، فهي الطريقة السلامية، فبفضل هؤلاء المسلمين الذين عاشوا في مجتمعات غير إسلامية وعملا فيها، وهذا ما حدث كثيرا في السودان الأوسط، وإن حدثت مناوشات بين الحين والحين، ولكن الغالب هو التحول السلمي، فقد فشلت سيوف صناعة في تحويل الأيام والموسي، فالقوة ليست بديلا عن السلام (22).

وفي حالة تشاد بالذات لم يذكر أحد أن استخدام السيف ولا البندقية، كما تعرف من بحوث تاريخ المنطقة، كان سابقا في انتشار الإسلام، وهنا كان Azevedo, M; Unadogzie اعتراف العلماء غير المسلمين بهذا حين يذكر أن توسع الإسلام في شمال شرق تشاد وسطها إلى الجنوب من درجة عرض 13 شمالا - وهي الدرجة التي يدعانيها فصلة بين الإسلام والمسيحية والديانات التقليدية أو الزراع - كان تقدم الإسلام هادئا وسلما وكان بداية في المدن والبلدان أكثر من الريف، ووصفه امتداد لإسلام الشرق الأوسط وحركة التجارة (23).

هناك مدرسة ثالثة تقول بأن التحول إلى الإسلام والمسيحية لا يحدث إلا عندما تنافر ظروف سياسية واقتصادية وأجتماعية تخلق جو أو حالة تتطلب التغير، كما قال الأنثروبولوجي Robin Horton: إنك تجد في الدين الجديد Catalyst حافزاً (30) وهذا غير صحيح بالنسبة للسودان الأوسط بل وغرب إفريقيا بما فيه تشاد بطبعية الحال، فما التغير الذي حدث في ظل ذلك أو أي شيء بدأ من القرن السابع بحيث أدى الإسلام فكان حافزاً لهذا التغيير؟
عوامل الانتشار

على الرغم من تعدد الآراء فيما يختص بإتصال السودان الأوسط والغرب الإفريقي بالإسلام، فالرأى الراجح أن البدايات الأولى ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، ففي النصف الأول من ذلك القرن بدأ الإسلام ينتشر مع طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء التي كان يقودها المسلمون، وكان من نتائجها وأثراها أن استقر بعضهم في المراكز التجارية على طول الطرق الصحراوية، ولكن الأهم أنه كانت مراكز الاستقرار فهى نهاية هذه الطرق الصحراوية، أي في النطاق السوداني بعد أن عبروا الصحراء بقوسها. من هذه الطرق ما كان يصل شمال غرب إفريقيا أو المغرب الكبير بغربي القارة، ومنها ما كان يقع أكثر شرقية، وهنا تبرز أهمية تشاذد (كاثيم ويومنو) مع برقة وطرابلس.

تشاذد دولة ممر:

إذا كانت العروبة والإسلام مصدرهما البداية الشمالية لل ليبيا، فإن موقع تشاذد الجغرافى بدون نافذة بحرية، وبين أقاليم مختلفة في إنتاجها، إقليم النطاق السوداني في جنوبها، ونطاق البحر المتوسط وأوروبا ومن ورائه في الشمال، أدى إلى أن ظلت حركة التجارية حركة مستمرة نشطة على طول العصور التاريخية كما تظهر الخرائط سواء قبل الإسلام أو بعده.

وتلعب الصدفة الجغرافية لليبيا في أن تقع تشاذد إلى الجنوب من ليبيا، وكانت موانئ السواحل الليبية الطويلة المنحنية نحو الجنوب، وهو ما مكن لموانئها أن تكون أقرب إلى الإقليم السوداني وما وراءه (قارن هذا بسواحل تونس، الجزائر، المغرب)، كما لا توجد تلك السلاسل الجبلية والهضاب الموازية للساحل، فأدى هذا إلى انسياب الليبيين نحو الجنوب في طريقين.
شكل (٩)
رئيسين؛ بنغازى / تشاد، وطرابلس / سكوثو، وغيرهما من مدن النوبوس والمفازات الفرعية.

أخذ العرب والمسلمون يتوغلون إلى ما يلي الصحراوات الكبرى جنوباً منذ القرن الثامن الميلادي، وكان توجع العرب وانسياهم نحو الجنوب يتم في حرائر الامتداد مستمرة متقدقة; إذ فاق العرب غيرهم من الشعوب في مقتدرتهم على الانتساب الداخلي، فالرومان مثالاً لم يستطيعوا التوجع أبعد من السهل الساحلي، وأقاموا خطاً من الفتور يحمي حدود مناطق تفوذهم من عرب القبائل الداخلية، على حين كان العرب الذين هم أساساً من البدو أكثر قدرة على التحليل في صميم الداخل، قاما من ذلك أرحاً كبيرة، بل قامت ممالك في نهاية هذه الطرق اعتماداً لأناس على التجارة. وفي الحقيقة فقد حددت تطورات مذهلة في العلاقات التجارية والتبادلات الثقافية والأعمال البشرية، فمن نهر السند إلى جبل طارق، ومن البحر الأحمر إلى مدغشقر، ومن إفريقيا الشمالية إلى المناطق الواقعة فيما وراء الصحراوات الكبرى، كان التنقل البشر والمتلكات حانًا إلى درجة أن روبرت كورتيس كان عن وحدة العالم الإسلامي الاقتصادية.

ولكن الاستقلال السياسي للإسلام الإفريقي، وقال: «إنها وحدة صعب تصورها في عالمنا الذي ينتم تحت وطأة الحدود، ويعتبر الهوايات والتأثيرات ضرورية لكل تنقل. وعلى مدى العصور الوسطى بأكملها، كان الناج أو الحاج المسلم يجد نفسه - من السند حتى إسبانيا وفي السودان - أمام لغة واحدة، ونطاق عيش واحد، ودين واحد، على الرغم من خلافات الخوارج والشيوع التي كانت تبدو مع ذلك سياسة أكثر منها دينية صرفة».

وفي الحقيقة فقد أصبحت إفريقيا، من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس...
عشر، ملتقي تجاريًا دوليًا في أكثر من وجه. وكان تأثيرها في باقي العالم مذهلاً. ولا يمكن تقدير نمو دولة كان وتطورها بدون الرجوع إلى التجارة عبر الصحرا . فليس من باب المصادفة بلاشك أن نجد أكبر دولة في وسط السودان تتكون في المصب الجنوبي لمحور الفوائل الكبير المار بفزان ويواحات الكوار . ويرجع أن تكون هذه الطرق قد استخدمت منذ العصر الروماني، فقد كانت أكثر الطرق مباشرة للوصول بين إقليم بحيرة تشاد والبحر المتوسط، ولم يكن ليناها غير طريق الشرق الوسطي الذي تمر بواحات الكفرة وطريق الغرب التي كانت تمر بناكدهما ثم فيهما بعد - بمدينة أحاديس .

كانت مملكة كان تقع في شمال شرق بحيرة تشاد، وكان محورا عليها بحكم موقعها هذا - أن تشرف على المنطقة الواقعة في غرب البحيرة، حيث ستقوم مملكة بورنو، وتؤمن سيطرتها على تجارة قار تجاه الجنوب عن الكوار كان يسهل الوصول إليها أيضا من ناحية الآير (ناكدها ثم أحاديس) .

ولهذا كانت السيطرة على هذا الموقع المهم من الطريق هدفًا أساسيًا لملوك بورنو على حد سواء، وكانت السيطرة على كوار تمثل أهمية أكبر من أهميتها بوصفها موقعًا استراتيجيًا للتجارة عبر الصحرا، فالأوقع أن الملاحة الوفيرة الإنتاج في بيلما كانت تدر على أصحابها دخولًا هائلة بسبب تصدير الملح بكثافة إلى بلاد الساحل، ولم يكن في إقليم وسط الصحرا ملاحة تضاهيها في قيمتها الاقتصادية.

وكانت تلك الفوائل من الضخامة بحيث يمكن أن تبلغ أعداد الإبل في القافلة الواحدة ستة آلاف، وقد تزيد إلى أثني عشر ألفا .
شكل (10)
وكانت السلع موضوع التعامل تمثل في الرقيق، وكان تجارة مشروعة في العالم أجمع حينذاك، وزيادة على الرقيق كانت القوافل المتجهة إلى فران وماركر البحر المتوسط تحمل معها أيضًا بعض السلع المستطلقة؛ مثل أنبوب الفلة، ورعي النعام بل حيوانات حية كذلك. وقال الإدريسي (القرن الثاني عشر) : إن شبة كوار كانت مطلوبة أشد الطلب في شمال إفريقيا، وكانت الخيل أهم ما يستورد; فقد كانت مطلوبة لقيمتها الحربية. ويؤكد الرواة أن فرقة الفرسان في عهد فوناما ديبالامبي حوالي (1210م - 1248م) كانت تتكون من 1000 حصان.

ويمكن الافتراض من ناحية أخرى أن النحاس أيضًا كان من بين السلع المرسالة إلى وسط السودان، فنحن نعرف أن هذا المعدن كان يستخرج في القرن الرابع عشر - يكميات صغيرة على الأرجح - من مناجم تقع بالقرب من تاكيدا. ويظن أنهم كانوا في ذلك العصر قد بدأوا فعلا في استغلال مناجم التسدير من الهضبة النيجيرية، ويرى لنا يبني دي لا كوراو أن التسدير كان في بداية القرن السابع عشر من السلع المرسالة من بوروندي إلى طرابلس. والمعروف أن النحاس والتصدير (والمكاك أيضًا) من المعادن التي لا غنى عنها لصناعة البرونز، ونحن نعلم أن فن المصنوعات البرونزية كان مزدهرا في بينين ونيوب قبل المجيء البرتغاليين إلى ساحل الأطلسي.

وكان حجم المعاملات التجارية بين الشمال والجنوب يتوقف إلى حد كبير على حالة الأمن في طريق القوافل الرئيسي في الصحراو الوسطى. ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر كانت ثلاث ممالك كبرى تؤمن المرور عبر هذا الطريق: مملكة فران في الشمال، وكانت منذ بداية القرن العاشر تحت حكم
شكل (11)
أسرة بنى خطاب البربرية، ومقاطعات كوار الأمازيجية في الوسط، ومملكة كانم في الجنوب. ويؤكد الإدريسي وجود مدن صغيرة كثيرة يسكنها التجار وعمال مناجم النحاس (33). وكان زعماء هذه الطوائف من الطوارق الملثمين. ويقول الإدريسي إن سكان كوار كانوا مشتغلين على وجه الخصوص باستخراج الشبة المستخدمة في الصباغة والديباغة وتسويقها، وكانوا يتقلونها شرقا حتى مصر وغربا حتى وزجَّلة.

وكان لمجموعة واحات فزان بالنسبة للتجارة عبر المسافات الطويلة أهمية تجاوز أهمية كوار. فهي تقع عند ملتقى طريقين من أكبر الطرق التجارية بين الشمال والجنوب (إفريقية / طرابلس - كانم / بورنو) وبين الشرق والغرب (مصر / غانا / مالي / صينى). ولم يكن لكانم بديل لمبادلاتها التجارية طويلة المدى مع بلدان البحر المتوسط (باستثناء المغرب الأقصى)، وكان لابد لمعظم السلع الواردة والصادرة من المرور بها. وكان التجار الذين يتعاملون مع بلدان المغرب هم وحدهم الذين يستطيعون تجنُب فزان وسلوك الطريق البالغ الوعورة المضار بجادو وناسلي. لهذا فلا يدأن واحدا من الأهداف الرئيسية لملوك كانم وبورنو كان أمن طريق القوافل بين الشمال والجنوب والسيطرة على المحطات الواقعة على هذا الطريق (33).

التجارة أو التجار

لنا وقتنا هنا مع التجارة والتجارة، فكثير من الباحثين يربطون بين التجارة وإثارة الإسلام، فالتجارة كانت هي العامل الرئيسي في انتشار الإسلام في غرني السودان ووسطه، ذلك أنه ليس من الضروري أن تقوم التجارة بنشر الإسلام، ولكن القوافل نفسها كانت تحمل فيما تحمل العلماء بوصفهم أئمة، وعلماء،
وقت واحد، وقد استقرنا في المراكز التجارية التي سبق ذكرها، والبعض الآخر الذي كان يعمل تجارًا قد يتحول إذا كان متعلماً ومليماً بالدين، عن التجارة، ووجد أنه من الأرخص له بعد أن بلغ من العمر والكبر أن يستقر، ومما تؤكد على أن التجارة هي الأساس، لأن بعض العلماء لم يقوموا بالتجارة أصلاً، بلدليل أن الإسلام لم ينتشر في عصوره الأولى في هذه المناطق في الأقاليم البعيدة عن طريق التجارة كما هو الحال في شمال غرب حوض الفولتا.

تشاذ طريق الحج

من المعروف أن الإسلام أضحى الدين الرسمي في دارفور خلال فترة حكم سليمان سولونج (1599م - 1327هـ) في الوقت الذي كان قد دخل بورونو قبل ذلك بكثير، وقد رائنا حركة الاتصالات القديمة بين الإقليمين، فكم كان بقدر من الثقة القول بأن الإسلام دارفور أتاه من الشرق (تشاذ) قبل الشرق، وذلك من خلال حركة الحجج من عصور قديمة إلى وقتنا الحاضر، ويدو أن هذا الطريق كان مفضلاً عن الطريق المتوج إلى طرابلس ومصر، فالطريق الأخير كان يستخدمه أولئك الذين كان في استغلالهم تاجر أو شراإ جمل لعبور هذه المسافات الطويلة من الصحراوة. في حين أن أغلب الحجاج كانوا من البسطاء الذين يقطعون الطريق على أقدامهم على طريق دارفور وشرق السودان، ويتوقفون بين الحين والحين للعمل من أجل الحصول على الزاد (22). وقد أعطى بوركهارت الذي قام برحلة من وادي النيل إلى الحجج عام 1814م وصفاً للففر التي كان يتبعها الحجاج في السودان، فكانت الطرق الرئيسية من دارفور إلى كردياف إلى سنار ومن هنا يتفجر الطريق، إما إلى أثيوبيا وميناء مصوع وإما إلى شندي.
شكل (12)
وسواكن، وقدر عدد هؤلاء الذين كانوا يبيعون طريق أثيوبيا وموضوع ما بين 120 إلى 200 حاج سنوياً، في حين أنه قدر الذين كانوا يسكنون طريق شندل - سواكن بنحو 500 حاج سنوياً. هذا كما اعتاد كثير من الحجاج التكارة على البناء في السودان بعد العودة من مكة، وكانت النتيجة أن استقرت أعداد كبيرة منهم خاصة في أرض الجزيرة وقطران وكسلا. وهذا مثل لأهمية الموقع الجغرافي بالنسبة للحجيج من غربي إفريقيا.

الطريق الصوفي

وتعد الطرق الصوفية أكبر قوة دافعة في الإسلام في تشاد، حيث كانت تمارس نشاطها الديني والتعليمي، وأهمها الشيخ جعفر ثلاثين، وإن كان السنسوية وضع خاص في شمال تشاد، بفضل الروتيا التي أنشأتها، وهي الطرق الصوفية التي انتشرت بين أهل بركة بعد عام 1843، واتسع نفوذها جنوبًا على امتداد التجارة.

بدأ السنسو حركته بدعوة الناس إلى الالتزام بفرائض الدين الحنيف، وأمرهم باتباع ما أمر الله به في كتابه الكريم عبادة الصالحين، ونهى عنه الله حتى يصلح حالهم، وتسقيم أمورهم بطاعة الله ورسوله، والدعوة إلى إقامة الصلاوات الخمس لتقوله تعالى: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن يطع الله ورسوله فولنلك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيعاً ﴾.
كما كانت تعاليمه تدعو إلى اتباع فرقان الإسلام، وصوم رمضان، وإقامة الصلاة، وحج البيت، وإياء الزكاة، واجتناب ما نهى عنه الله من قول الكذب والغيبة، وإبتناء أموات الناس بغير حق، وشرب الخمر، وشهادة الزور، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والمواعظة الحسنة، كما أمر أن يكبح كل فرد من أفراد الأمة جماح نفسه عن الشهوات، وبيدها عن ارتكاب المعاصي، فأمر بالاتحاد والتعاون وربط أواصر الأخوة الإسلامية التي لا تعرف الفرق بين جنس وآخر، فلا فرق بين عرب وأعجمي إلا بالقوى، ولا تعرف السنوية وطنا خاصة، ولا تنظر إلى الحواجز الإقليمية.

ومن هنا نجد انتشار الزوايا السنوية انتشاراً واسعاً، وبعد انتشارها انتشرافكار الشيخ السنوسي وآرائه ومبادئه.

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار السنوية:

1- عدم استعمال العنف، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والمواعظة الحسنة.

2- اختياره لمراكز رئاسة زوايا ذات مواضع استراتيجية، فبرقة، على سبيل المثال - في ملتقى الطرق والتفاوت التجاري.

3- وجد السنوسي في أهل البادية تربية خصبة يشرع فيها أفكاره لنشر الدعوة بما يناسب فطرتهم البدوية.

وانتقال السنوية إلى جنوب لأنها على طول الطرق التجارية في إفريقيا، وفرزان والمناطق التي أطلق عليها (إفريقية الاستوائية الفرنسية) وأولها تشاد، انتشرت زواياها ومنها زوايا تشاد.
وكانت الزاوية هي المكان الذي يضم مسجدًا، ومدرسة لتحفيظ القرآن، ومساكن للطلاب الغربيين يطلق عادة عليها (خلوة)، والخلوة مقسمة إلى مواطن للغربيين، وكل قسم منها يسمى (ريطا) 

كما تضم الزاوية مكتبة، وهي بمثابة معهد ديني لتدريس العلوم الإسلامية، ويبقى الأسانيد، وها مجلس لاستقبال الضيوف، وكانت الزوايا عادة ما يختار موقفها بجوار الآبار وعلى الأطلال التي خلفها الرومان في الصحراوات، وفي المواضع الصالحة للزراعة، وخاصة الموافقات الاستراتيجية، سواء أكانت عند تقاطع طرق، أم كانت مثبتة قوافل تجارية. وكان معظمها منتشرًا في الصحراوات تجاه الجنوب 

وكما كان للسوسية دور في نشر الإسلام، فقد كان لها أيضًا فضل كبير على نشاط التجارة عبر الشاد، إذ كانت طريق بنغازي - وادي نفوذ سائر طرق التجارة حيوية ونشاطًا في نهاية القرن الحادي عشر. وكانت هذه الطريق التي تصل ولاية برقة بواديه مباشرة قد اكتشفت في أوائل القرن، وكان سلطنين وادي الذين تعاظمت سلطة دولتهم باطراد بعد منتصف القرن الثاني عشر، حرصين على تعزيز دور طريق تتافد بورون عبرًا ودارفور شرقًا، ومنذ عام 1863، بات مصير هذه الطريق التجارية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمصير المنطقة، وكان للجاح هذه الطريق الدينية تأثير كبير على التجارة، بالنظر إلى أن منظمة واحدة كانت تتوالي سلسلة من أوائلها إلى آخرها، مزودة التجارة بإطار قانوني وأعمال تجارية مشتركة، بل زودتهم أيضًا بمرافق بريدية. وقد بذل زعماء هذه الطريق قصارى جهدهم لتعزيز التجارة والمحافظة على الأمن على طول الطريق، وعمدوا لهذه الغاية إلى التوسط لحل النزاعات بين الأسر أو الفئات الاجتماعية أو حتى
بين جماعات إثنية بكاملها، وكثيراً ما وقعوا في سعيهم إلى استعادة البضائع المسروقة أثناء الغارات على القوافل. وأفادت التجارة بدورها السنوسيين، إذ كانت تتكفل لهم دخلاً من رسوم العبور وأجور التخزين، وتجلب لهم الهدايا من التجارة، وتضفي طابع الوحدة على أراضي السنوسة المتزامنة الأطراف.

ودامت التجارة بين بنغازي ووادى إلى ما بعد نهاية القرن بفضل السنوسة، ولأن الطريق كانت تصل إلى مناطق أبعد من المحطات الواقعة في أقصى جنوب خط التجارة بين طرابلس وكانو. أما الطريق الواقعة في أقصى الشرق، أي درب الأربعين، فقد تضاءل دورها بعد منتصف القرن على أثر نمو التجارة بين بنغازي ووادى. وبعد عام 1855م، عانلت الدولة المهدي في السودان درب الأربعين وطرق النيل.

ترحيب ملوك تشاش بالفقهاء والدعاة

بعت قدوم التجار والفقهاء والدعاة العرب المسلمين من شمال إفريقيا و مصر نشاطاً ملحوظاً في إفريقيا الغربية إبان العصور الوسطى، وقد أدى هؤلاء واجبهم في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في رروع تلك المنطقة، والتحقيق كثير منهم بالملوك والأمراء، وعملوا في خدمتهم، أو قدموا إليهم الخبرة والثقافة، وحبوا إليهم الدين الجديد.

وهكذا تستطيع تشير إيمان بعض الملوك والأمراء قبل الشعوب بالدين الإسلامي، وهو الأمر الذي يحاول الأوروبيون تشويبه، وتضرب الأمثلة بما كان يحدث من ترحيب وإجلال لهؤلاء العلماء في بورتو ويجرمي ووادى، أو في تشاد، عندما انتشر الإسلام هناك.

- 56 -
فمن المعروف أن بورنو أصبحت أقوى الممالك الإسلامية في إقليم السودان بعد انهيار صنغي عام 1591م، ويرجع جزء كبير من مكانتها السياسية والاقتصادية وقوتها الحربية إلى ملكها إدريس عالوما (1599م-1673م) الذي وصفه معاصره بأنه كان دبلوماسيًا محترمًا وليس مسلماً فحسب بل عاشًا للإسلام وعمل كل ما في وسعه لترقية بورنو، وعلى الرغم من تدهور قوة بورنو ونفوذها في القرن الثامن عشر وخاصة بدءًا من 1659م، لم يكن هناك ما يدل على تدهور أو توقف كبير من نمو الإسلام وانتشاره في المملكة. فقد سجل المعاصرون على العادات أو الملوك أنهم يجرون العلماء لما يعودون من خدمات للإسلام مثل حمدون بن دوناما (1731م-1767م) ويلال بن دوناما (1761م-1791م) كان من أعدل وأحسن الملوك، وكان مشهورًا بحبه للعلماء.

وكانت بلدة نجوزارجامو تضم عدة مساجد في منتصف Ngozargamu

القرن السابع عشر يؤمنها آلاف المؤمنين يوم الجمعة.

وحاول الملوك إدارة شؤون المملكة طبقاً للتعاليم الإسلامية بحيث تحل محل المعتقدات التقليدية. وقد أحاط مائى على بن الحاج عمر (1644م-1680م) نفسه بزمرة من العلماء الثقافات لاستثمارهم، كما كان لديه مكتبة تضم الكثير من الكتب الإسلامية التي جلبت العلماء إلى زيارتهم الأزهر ببغداد. وضيف إلى ذلك ما أضافه الحكم على العلماء من احترام وتقدير ماديجة بالإعداد من الضريبة، ومن بعض الواجبات الرسمية كالخدمة العسكرية. ولم تكن حاجة هؤلاء العلماء إلى الملوك والسلطات بأقل من حاجة الآخرين إلىهم، وذلك ليشغلو عدة وظائف في الدولة وعلى رأسها القضاء، وقضى المنازعات بين
الناس، وكذلك إبرام العقود وغيرها، فضلاً عن أن العلماء يضفون صفة
الشرعية على الحكام.

ويتساءل المرء: لماذا حقق الإسلام انتصارات مدهشة لم تصادف مثلها
المسيحية على الرغم من دعم الاستعمار وجهاز المشيرين المتظم؟ إن شعور
الأوروبي المستمر بالتعنيف العنصري واختباره الرباني ولو كان أخاه في الدين قد
أدى إلى نفور الوثنيين من المسيحية ديانة البيض، كما أن أسلوب الداعي
وعلاقة إفريقية التاريخية بالعرب المسلمين قد جعلت للإسلام إغراء خاصًا لدى
الإفريقيين.

ونظراً لاختلاط ممارسات غير إسلامية مع الإسلام فقد وعاها المجاهد
عثمان دان فودو، وقال في شأنها: «إن هذه الأفعال إن كانت ناتجة عن جهل
وعدم معرفة لا تعد كفرا»، وذلك عندما انتشر الإسلام لدى الهوسا، هكذا كان
الإسلام دين تسامح وفهم لعقلية البشر.

إن للإسلام صلة وثيقة بنفسية الإفريقي، ذلك أن هناك تقارياً كبيرًا بين
العقلية الإفريقية والتقاليد الإسلامية، ولهذا شعر الإفريقي المسلم منذ الوهلة
الأولى بالألوهية الحقيقية بينه وبين الداعية، وقد قال في ذلك توماس أرنولد على
لسان أحد الشهود: «إنا نجد الدعاء المسلمون يفقدون إلى قلوب الإفريقيين
الوثنيين ويهولونهم إلى الإسلام». وكان من أن يُصيرف الداعية السامية أن
أصبح الأفارقة يظرون إلى الإسلام على أنه دين السود ولي الصحبية على أنها
دين الأفريقيين البيض، فالإسلام يدعوهم للخلاص، يدعوه إلى النهوض بالنفس
قائلًا: إن بلوقك أسمى الدرجات، متوفر عليك (14).

ولن يكون في الإسلام فقط نظام متنج أو مبشرون كما في الغرب المسيحي.
إن الإسلام في إفريقية وهو دين المدن والبلدات، لم يقلب الهياكل التقليدية.
كما أنه لم يحدث أن دخل الملوك السودانيون في حروب متحركة ومنظمة لحمل السكان على اعتناق الإسلام. وقد تمتع الإسلام بميزات على المسيحية التي نشرتها البعثات الكنسية، تتمثل فيما يأتي:

أولاً: الإحساس بأنه ديانة إفريقية، وأنه لا صلة بين الإسلام والاستعمار الأوروبي. وكان الذين ينتشرون الإسلام أفارقة، في حين كان المبشرون بالسماح أوربيين لفترة طويلة. ويعيش المسلمون بين السكان المحليين ويخلطون بهم اجتماعياً وفي العمل، على خلاف المسيحيين الأوروبيين الذين يعيشون في حياة مفصلة، ويعيشون حياة أوربية. ثم إن الإسلام كان يتفق مع بعض العادات الأفريقية كعدد الزوجات، ووصل الإسلام إلى إفريقية قوياً ووحيداً لم تكن المذاهب والاختلافات المتضمنة بين الفرق، كما هو الحال عند المذاهب المسيحية. لقد انتشر في إفريقية الغربية المذهب النهضي الملكي، مع بعض الاتجاهات والاجتهادات الشخصية في بعض الحركات الدينية. بهذه الصفة استطاع الإسلام أن يفرض نفسه على الإفريقي المتحمس للخلاص والهدى.

لا غرو إذ أن ينتشر الإسلام على مدى نصف قرن من الاستعمار أكثر من انتشاره في القرون العشرة السابقة عليه(42)، على الرغم من الدعم المادي والمعنوي الذي حظيت به البعثات الكنسية من جانب الإدارة الاستعمارية.

دور علماء بوروندي في نشر الإسلام خارجها
كان لهؤلاء العلماء دورهم النشط في تفاعل خارج بوروندي. ذكر محمد بلو ابن عثمان دان فوديو وخلفيته عن علماء بوروندي أنه: «لا يوجد في بلادنا طلاب
وكتبية للفقريان بعادل بهم نظراءهم في بورونو. وقد حول علماء المسلمين نجوزارجامو إلى مركز للعلوم الإسلامية، كما اشترك بعض طلاب هذا المركز في حركة الجهاد في بلاد الهوسا، ومن أمثلتهم المعلم زكي أمير كاتجاوم الذي سبق أن تعلم في بورونو، وأصبح فيما بعد شخصية رائدة في حركة الجهاد. كذلك سافر بعض علماء بورونو لمسافات بعيدة لتعليم الدين في بلاد الهوسا والهولندا وجهات أخرى. ومن الملوك من ذهب للحج خمس أو ست مرات، هذا فضلاً عن استشرائه هؤلاء العلماء قبل اتخاذ القرارات المهمة.

أخيرًا إذا قورنت بورونو بغيرها من الممالك الإسلامية في القرن السابع عشر والثامن عشر لتبين أنها كانت أكثر الأمارات تقدماً أما باجرمي التي تقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد فقد دخلت الإسلام في النصف الثاني من القرن السادس عشر في عهد عبد الله الحاج (1588-1603 م) وكانت باجرمي لفترة ما قد حصلت على استقلالها بعد وفاة إدريس عالوما (1653 م) ولكن مما لا شك فيه أن مائة بورونو كان مستؤلاء إلى درجة كبيرة عن إرساء قواعد الإسلام في باجرمي، كما قام العلماء الحجاج بدور في نشر الإسلام (44).

وفي واداي قد يكون الإسلام تأخر بعض الشيء عنه في بورونو، ويقال إن عبد الكريم أو محمد صالح الذي أقام حكماً إسلامياً في واداي، قد أرسل جماعة إسلامية في باجرمي قبل وصوله إلى واداي، وهناك اتخذ من واداي عاصمة له قبل أن تتحول إلى أيشيه، وأطلق على أسرته اسم كولاك العباسي، ووصف ذلك مؤشراً على أصله العربي، وهذا يدل على أن هذه الأسرة التي استمرت من 1532 وحتى 1911 م أسرة مسلمة. وقد انتشر العلماء من واداي يبشرون الإسلام...
حوّلهم. وهكذا الحال حتى أصبحت واداً عام 1800 من مراكز التعليم الإسلامي يأتيها العلماء المسلمين من سائر وجنوب الخرطوم ليتعلموا في واداً العاشرة.۶۴

فرنسا والدين

من القوى الاستعمارية الثلاث الكبرى في إفريقيا (بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا). احتلت فرنسا أكبر مساحة من العالم الإسلامي الإفريقي، وقد تمت سيطرتها على هذه المساحات عن طريق استخدام القوى الحرية أكثر من زميلتها بريطانيا وألمانيا.

وكان هناك قطاع مؤثر في فرنسا يعادي الإسلام، حتى قبل إخضاع هذه الأقاليم، فنظرتهم إلى الإسلام مريرة للغاية، وكان جزء كبير من الذين قاموا بالحملات الحربية من هذا القطاع لا يقولون إلا بخطورة الإسلام أو شرور The peril of Islam الإسلام، فلم ينظروا إلى الإسلام إلا على أنه يمثل تهديدًا ثقافيًا، وحرييًا، وسياسيًا، أمام مشروعاتهم الاستعمارية.

وسرعان ما ظهر أن هذا الرأي كان منطقيًا. وأن موظفي الإدارة الاستعمارية تحققوا ميدانيا من صحة هذا، فقد وجدوا أنه يمكن التعاون مع المسلمين وإن لم يكن معهم جميعا، فهناك جماعات مؤثرة كالتيجانة الذين كانوا مستعدين للتعاون معهم. في حين كانت هناك طرق صوفية أخرى كالحامدية وهي طريقة إسلامية متفرعة من التيجانية والوهابية مثلت مشاكل لا تنتهي بالنسبة للإدارة الاستعمارية.۶۵

علي العموم كانت فكرة الغالية من الفرنسيين في غرب إفريقيا أن الإسلام
في النهاية هو العدو الأكبر للحضارة الفرنسية التي يريدون أن يشتروها، ذلك لأن هدف السياسة الاستعمارية الفرنسية هو دمج NAS المستعمرات الأفقارة في الحضارة الفرنسية وتشكيل اتحاد مع فرنسا. وتمثلت هذه السياسة أولاً في الإدارة المباشرة، ولكن منذ 1300-1890 م، حوالتها إلى حماية لهذه الأقطار، وكان معظم هذه الأقطار يشغله المسلمون. كان هدف المسلمين الأول الحفاظ على الإسلام والثقافة الإسلامية، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتعارض هذا مع السياسة الفرنسية. وقد تفهم بعض الإداريين الفرنسيين هذا، ورأوا أن السياسة الفرنسية المستمرة من بابا لا يمكنها أن تعمل في هذا المحيط الإسلامي، ومن ثم تركوا المسلمين يشكلون حياتهم كما يريدون ولا يتدخلون فيها، إذا لم يسبوا مشكلات واضطرابات (17). ولكن في الوقت نفسه لم يقوموا بشيء قد يساعد على زيادة انتشار الثقافة الإسلامية. فقامت في اتحاد غرب إفريقيا الذي أنشئ عام 1845 م، بتفصيل أنها متمددة فرنسيا، متغيرة للثقافة الفرنسية غربا، واجتماعيا، وهي مميزة Privileged. وفي الوقت نفسه كانت هناك طاقة لا تتمتع بامتياز ومعظمها، بطبعة الحال، من المسلمين، فالسيحية إذن لم تمثل بالنسبة لممتلكيها سوى وسيلة للحراك الاجتماعي والاقتصادي وكان قدوه المسيحية عن طريق الجنوب لأنها مرتبطة بالحركة الاستعمارية بطبعة الحال، وما دام الاستعمار قد بلغها من الجنوب، فكلها كانت المسيحية.

وكانت بذور الكنيسة الأولى في جنوب تشاد في إقليم (أوبانجي شاري) بجمهورية إفريقيا الوسطى في بعض القرى التي تحولت إلى مدن عبر الزمن مثل بانجي، على أن يمتد نفوذها شمالا حتى جنوب تشاد. وتطورت الكنيسة الكاثوليكية، وكان هناك توتر مستمر بين مركز المسيحية الجنوبي في برازافيل
بإمكاناتها الكبيرة التعليمية والطبية، وتلك التي تقع على الهوامل الشمالية، ومع ذلك ظلت كل الإرساليات في تشاد تابعة لأوبانجي شاري حيث الجذور الأولى، وظل الأمر على هذا الوضع حتى مارس 1942م حين أفر البابا قيام بعثة مستقلة للعمل في تشاد.

أما من حيث المذاهب المسيحية فقد بدأ نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية (الإنجليزية) الأمريكية عام 1920م، بفتح دور العبادة والمدارس في Doba و Sarra و Doba و Doba و Doba و Doba و Doba ليبى.

وفد تربى توميبار في أول رئيس لتشاد في مدرسة بعثة تبشيرية بروتستانتية.

أعمال الكاثوليكية فقد بدأت نشاطها بواسطة آباء روح القدس، فرعًا من الكنيسة الرئيسية في أوبانجي شاري، وأسس الكاثوليكون Holy Ghost مدرسة ومستشفى في كوا بالقرب من مندو، ولكن اضطرهم مرض النوم إلى الانتقال بسرعة إلى دوما عام 1932م، وقامت بعثة كابوتشي التبشيرية ومركها الكموين بفتح فرع لها في سارا عام 1939م، وورثت في هذا مكان بعثة آباء روح القدس وهكذا صار عدد البعثات التبشيرية 10 بعثات عام 1909م، ثم ازداد إلى 30 بعثة عام 1920م، ثم إلى 99 بعثة عام 1970م، وارتفع عدد الذين تحولوا إلى المسيحية من أقل من 1000 نسمة عام 1944م إلى 120 ألفًا عام 1970م، ثم إلى مائتي ألف عام 1994م، مما أعيد بناء كنائس كاثوليكية مئات منها خلال حقب حروب الثمانينيات، وهي الرمز الأكبر للكاثوليكية في تشاد (8).

وإضطاعت البعثات التبشيرية - من خلال الخدمات المالية التي تأتيها من أوطانها وكذلك من مشروعاتها الزراعية وغيرها - أن تبنى الكنائس والمدارس والعيادات الطبية، وكانت الإرساليات المسيحية تطلب تحولا وتفعيلا شاملا إلى
جانب التحول من الوثنية إلى المسيحية، فكان تشجيع التسمى بأسمااء أوروبية، وارتداء الملابس الأوروبية.

وقد واجهت المسيحية في تشاد بعض المشكلات مثل بطاقة عملية أفرقة الوظائف التقنية نتيجة لعدم الاستعداد لتكوين كوارد من رجال الدين الذين يستخدمون لتعليمهم أهميتها، وتدريب الإنجيل بلغة غير اللغة التي يفهمها الأهالي، فضلاً عن معارضتها لتعدد الزوجات.

وبدعى الأوروبيون أن سبب انتشار الإسلام بسرعة عن المسيحية في إفريقيا ماقدمه المستعمرون من أمر، وسلام، وحرية، وتوقف المنازعات بل وإضافة الوظائف لهم، ولكن الحقيقة أن جهل الأوروبيين بطبيعة السلطة في المجتمعات الإفريقية كان دافعا لاستخدام الإدارة الاستعمارية للمسلمين في الفترة الأولى لهذه الإدارة، فقد رأوا أنهم أكثر فهما للشعوب الإفريقية من الأوروبيين الجدد، ثم أنه يسهل التعامل والتفاهم معهم، لأنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة والحساب، وأدخلوا العقود، بل تروكوا لهم القضاء، وكانت معظم هذه الوظائف هي الوسيطة أو الفرعية التي يسهل تحليل الإدارة الفرنسية فيها مع المسلمين من الأفارقة، ولم يكن هذه كما نرى ناتجا عن عشق الفرنسيين للمسلمين. وفي الوقت نفسه كانت المراكز والوظائف الرئيسية في أديب الفرنسيين لأن السياسة الفرنسية في إدارة المستعمرات هي سياسة الحكم المباشر، وهي أقرب إلى السياسة البلجيكية والبرتغالية، على عكس السياسة البريطانية التي كانت تميل إلى الحكم غير المباشر فكانت تترك الإدارة في أيدي الوطنية ولكن تحت رقابة مأمور المركز أو محافظ الإقليم، وكذلك كانت السياسة الألمانية تنظير إلى الأفريقة، بل وإلى غير الألمان نظرة دنيا، ومن ثم فسامة الدمج التي
كانت تسعى إليها فرنسا لم تكن واردة لديها وللتسجيل تصرفات العلماء المسلمين وسلوكهم ومراقبتهم مراقبة شديدة في المركز Service des Affaires Islamiques أنشئت إدارة الشؤون الإسلامية الجديدة لحاكم غرب إفريقيا في داكار بعد عام 1900م، وطعم المكتب بخبراء في الشؤون الإسلامية من شمال إفريقيا، وهذه الإدارة ما هي إلا إدارة مخابرات.

فهل بعد هذا كله يمكن أن يجري أحد على التقول بأن انتشار الإسلام أسرع من انتشار المسيحية كان يرجع إلى الإدارة الاستعمارية ؟ ومع ذلك كانوا بناء لقرى موقوف فرنسا ذاتها من المسلمين، وهي التي قالت إنها ساعدت على نشر الإسلام في المستعمرات، إن يقولوا إن كنبا!

كنا نعرف أن فرنسا استقبلت أعدادًا من مهاجري المغرب الكبير (تونس - الجزائر - المغرب) وكانوا يستخدمون عقب الحرب العالمية الأولى في التجهيزات العسكرية، ومصانع الذخيرة، والمواد، والمناجم، وحرية التنافس من أجل القنابل، والمنافسة أيضاً أن الهجرة أثناء الحرب الأولى لم تكن طوعية، بل كانت قسرية من أجل الدفاع عن فرنسا، تعويضاً عن العمال الفرنسيين الذين ذهبوا إلى مثابين القنابل، كما أن موجات المهاجرين وقبلهم ورفضهم من جانب الفرنسين كانت تتوقف على مصلحتهم مثلما حدث في الفترة 1921-1922م من تسير الهجرة إلى فرنسا لحاجة الصناعة الفرنسية لليد العاملة نتيجة ما حدث لشباب الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد تكرر ذلك مرة أخرى عام 1939م، وبعد انتهاء الحرب الثانية عام 1945م، وهكذا استقدموا في الأساس بوصفهم قوة عمل رخيصة طبعة، كي يقوموا بأعمال الأدبيات في الآلهة الفرنسية في فترة رواج اقتصادياتها بعد الحرب الثانية، وفي السنوات، ولكن
جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن، وعلي حد قول أحد الأوروبيين: "لقد طلبا عمالا فجاءنا بشير″، فقد استقر العمال، وأصبحت لهم مطالب قوية على سوق العمل والمجتمع الفرنسي عامة، ومن ناحية أخرى استقدم بعض العمال أفراد عائلاتهم، ونشأت جيل من صلبهم في المجتمعات الأوربية، ومن ثم تكونت مجتمعات مهاجرة متكاملة في فرنسا وأوروبا بصفة عامة، قوامها عمال مهاجرون في أدنى السلم الوظيفي، ومع ذلك أصبحوا ملقؤين الآن من الذين رحبوا بهم من قبل، بل زاد الضغط النفسي عليهم من خلال الحوادث العنصرية التي تقوم بها الأحزاب اليمنية المتطرفة، وخاصة منذ انتخابات الدخل الأوروبي وبدء ظهور البطالة، والتضخم الذي كان من نتائجه انتخابات مستوى النشاط الاقتصادي، وكان وقع ذلك على العمال المهاجرة خطيرا.

وأصبح أي احتجاج أو إضراب من المهاجرين المسلمين ناتجا عن سوء الأوضاع كما حدث في إضرابهم بين عامي 1982 - 1983م في مصانع السيارات، لكن مطالبهم قد تم تحويله حتى طرف النقابات العمالية، فعمدة مدينة مرسيليا التي تقطن فيها جالية مسلمة كبيرة ج. ديري، في ذلك الوقت أعطى الانطباع من خلال تصريحاته بأن كل مسلم يتزود على المساجد هو "مطرف" محتمل، وكل مطرف هو إرهابي كام، (ه).

أين هذا من قول الصوفي الأندلسي الكبير محيي الدين ابن عربي:

قد كنت قبل اليوم أشكر صاحبي
إذ لم يكن ديني من ديني دام
فأص بح قلب قابلا كل ملة
فـدير لرهبان ومرعى لغزلان

- 66 -
وهيكلا عباد وكعبة طائف
وإنجيل توراة ومصحف قرآن

هذا هو الفرق بينا وبينهم.

فرنسا واللغة والتعليم والصحافة

التعليم واللغة

ارتباط التعليم بالدين الإسلامي أرتبطا شديدا في تشاد، بل في كل إفريقية جنوب الصحراء، فحين انتشر الإسلام، انتشرت له، ويعود هذا الانتشار قويا في شمال تشاد ووسطها، ثم يختلف أكثر من اللغات المحلية ويختلف تدريجيا في الجنوب، نتيجة أهمية أولهما للعديد من المناطق جلخ الإسلام والعربية، والثاني هو دخول المستعمر من الجنوب حاملا سيده ودته ولغته.

وهكذا كان حال اللغة والتعليم في تشاد.

ومن أول الأمر كانت المدارس ملتحقة بالمسجد، فإلى جانب كل مسجد كانت توجد حجرة لتعليم الأولاد، وفي معظم الأحيان كانت المساجد مقرا للتعليم، وتعقد فيها حلقات الدرس، وكان الجامع الكبير في وادي مركز العلم هناك، ولله شهورته الكبيرة. وكانت أول دروس للأطفال مختارة من القرآن الكريم، وسيرة الرسول عليه السلام، إلى جانب اللغة العربية ومبادئ الحساب، ويلي ذلك دراسة العلوم الإسلامية كالحديث والتفسير والفرائض وال نحو والصرف والبلاغة. هكذا كان المسجد هو المدرسة، وبازداد عدد الجوامع تزداد المراكز التعليمية وقَد بلغت أقصى توسع لها بعد عام 1960 أيام حكم السلطان صايبون، أما التعليم الثانوي فكان متاحا في مراكز ثقافية كمدرسة محمد البيث.
التي تأسست عام 1918م، وكان لها علاقة بالمؤسسات الدينية في مصر، وكذلك مدرسة محمد مهدي السنغالي في قرطبة (إيجينينا) ومثلها في Kiskawa كيساكوا في مقاطعة البحرية، ومدرسة موسورو في مقاطعة كالم (60). وهذه الدراسات تغذى في المراحل العليا التالية، في تعممت وقاس والقاهرة، إذا أراد الطالب متتابعة تحصيله، وكانت حلقات الدرس التي يتصدرها الأستاذ أشبه بندوات تجري فيها المناقشات الجدلية والفقهية.

«لقد تعلمنا نحن المتخصصين الإفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا، وحروب الغال، وحياة جان دارك ونابليون، وقرأنا أشعار لامارتين، ومسرح موليير، ودرستنا التنظيم الإداري لفرنسا، كما لو كانت بلادنا إفريقيا بدون تاريخ، وبدون واقع جغرافي، وبدون ثقافة، وبدون قيم، وبدون أخلاقي. وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدير الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار. لقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقي أن يظل في مرتبة ثقافية منحطة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطا.

لقد أراد المستعمرون للمتخصصين الإفريقيين أن يفكروا بديكات وبرجسون، ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الإفريقي، لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الإفريقيين أمثال الحاج عمر بن سعيد تال، وأحمد ساموري توري، وإذا استمر الأمر على هذا النحو فإن نستطلب أن نُنمي شخصيتنا الإفريقة التي هي الطريق الوحيدة للنهدة في إفريقيا». (أحمد سيفوتوري)

كان التعليم الأوروبي مرتبطا بالدين المسيحي في المرحلة الاستعمارية، وكانت السياسات التعليمية في المستعمرات الإفريقية مرتبطا أو متأثرة كثيرا بالكنائس المسيحية والقبائل، فأصبحت غالبية المدارس تحت إشراف البعثات.
التمييزية، سواء في المستعمرات البرتغالية أو الإنجيلية أو الإسبانية، ولم تشذ فرنسا عن هذا النظام (90)، بل لقد كانت هي والبرتغال أكثرها تطرفًا في هذا الاتجاه.

إذا كان الدين الإسلامي الحائز دون نجاح سياسة الفرنسية والإدمام، فإن الاستعمار الفرنسي لم يفتتح منذ الوهلة الأولى للاستقرار في تشاد أن يدعم التنصر. ولمما كان الجزء الجنوبي من تشاد ما زال على دياناته التقليدية، فإن الأرض هنا خصبة للغاية للاستقرار فحسب، بل لنشر اللغة الفرنسية كذلك.

وقد عكس نظام التعليم الفرنسي - لا في تشاد وحدها بل في كل المستعمرات الفرنسية سواء في إفريقية أو في غيرها - سياسة الاندماج أو assimilation الامتياز، وكانت فرنسا دائماً الدمج والتدوين الثقافي، والقضاء على ما يربط الإفريقى بماضيه، فهو يتعلم في مدارس الاستعمار أنه لا تاريخ له، وأن جذوره بدائية وأن زعماته كانوا متولسين، ومن ثم عمل على خلق مركب النقص في نفسه الإفريقي، فمن صف الحضارة حتى التعليم العالي، يتعلم الشاب الإفريقي اللغة الفرنسية وتأريخ فرنسا وجغرافيتها وأنظمتها الإدارية، وفلسفة ديكارت ونورس检验ات راسين ومولير وأشعار موسيه وكاسد، أي لا تختلف المناهج عما يتلقاه الطالب في فرنسا، بل إن المعلمين المبشرين يجب أن تكون إجازتهم الدراسية من معاهد فرنسية، ولعل أهم ما أضر بالتعليم الإسلامي واللغة العربية إصرار الإدارة الفرنسية على أن كل موظفي الإدارة في المستعمرة يجب أن يكونوا متخرين من مدارس فرنسية، ويجب أن يجيدوا الفرنسية قراءة وكتابة، وكذلك الإصرار على أن يكون تعليم رؤساء الإدارات
فرنسا ، وهذا معناه أن التعليم الفرنسي لا التعليم العربي هو الذي يصل الإنسان إلى الوظائف الرئيسية (63) ، وقد قرر مؤتمر برافupil عام 1944 أن العمل الحضاري الذي تسعى إليه فرنسا في إفريقية الاستوائية وإفريقية الغربية لابد أن يعود كل فكرة للاستقلال أو التطور خارج الإمبراطورية ، وإنما الهدف من النظام التعليمي الفرنسي كما جاء أيضا في وثيقة رسمية عام 1909م ، أن تكون المدرسة وسيلة لنشر الحضارة الفرنسية وتزويج العناصر المحلية للعمل كتبة وموظفين صغارًا للمعاونة في الإدارة ، ومن ثم كانت المناهج في تشدد لا تختلف عن نظيرتها في داكار أو برافupil أو حتى في الصين الهندية (فينام) ، بل هي صورة طبق الأصل ، طبعت في وزارة التعليم في باريس ووجزعت على أرجاء المستعمرات .

وهذا النظام الفرنسي هو النظام البريطاني نفسه ، على عكس النظام البريطاني الذي اعتمد في معظمه على المبادرات الفردية ، وإن كان هناك إشراف من خلال نظام المنح والتفتيش . واختلف النظام الفرنسي عن الإنجليزي ، في أن الفرنسيين لم يعطوا أهمية لأصل الطالب القبلي أو مكانة قبليته ، في حين فكر الإنجليزي في تعليم أبناء الرؤساء في نظام يجمع بين المواد العلمية المدنية وهي باللغة الإنجليزية مع قليل من اللغة العربية والدين ، وكذلك الإبقاء على اللباس التقليدي والعادات السائدة (64) .

وكان لخوف المسلمين من ارتباط التعليم الفرنسي بالتبشير أثره في إحجام أولئك الأسوار عن إلحاق أبنائهم بمثل هذه المدارس ، فعلى سبيل المثال كان عدد الطلاب المسلمين في مدرسة أبيشيه لا يزيد على 50 طالبا ، في حين
كان هناك نحو 700 طالب في المدارس الإسلامية في أم سويف، وكان هناك جهد كبير حتى سمح لـمدارس عثمانية في أبيشية عاصمة وادي بتعليم اللغة والقرآن في الكلية الفرنسية العربية التي أنشئت عام 1952م (66).

كانت أول مدرسة تقيمها البعثات البابوية البروتستانتية في الجنوب عام 1932م، ثم لاقت بها بعثة الرماني الكاثوليك بدعم ما كان كامل من الإدارة الاستعمارية، وشملت لها الإدارة الاستعمارية العمل وفق المناهج الأوربية، وتدريس جميع المواد باللغة الفرنسية ما عدا الدين الذي يدرس باللغات المحلية.

ثم ظهرت المدارس الخاصة عام 1952م التي كانت في حاجة إلى الاعتراف الرسمي من الدولة، فضلًا عن الإعانات، ومن ثم كان عليها أن تلتزم بالمناهج التي فرضتها الإدارة وهي المناهج الفرنسية، وظل الأمر كذلك حتى أتت الحرب العالمية الثانية، وعند ثم عظم المدارس تدريس البعثات الليبية.

وكان الهدف من البداية هو التركيز على التعليم الإبدائي، ولم يسمح لمدارس البعثات الليبية بأن تقبل طلابًا في التعليم الثانوي إلا هؤلاء الذين يخططون لدخول السلك اللاهوتي clergy وهم الذين سيستكشفون طريق التعليم الدينى، ويتم مشاركون من هؤلاء أن يتحولوا إلى المسيحية، وهو ما كان يخشاه الآباء المسلمون على أبنائهم.

وإليكم 염마 التي أصابت التعليم في الفترة الاستعمارية بما فيها مدارس البعثات الليبية، التي كان الغرض منها الحصول على صغار الموظفين لا غير، لابد من الاطلاع على الجدول.

- 31 -
تطوير عدد طلاب التعليم الابتدائي والثانوي قبل الاستقلال ويعده في تشاد

<table>
<thead>
<tr>
<th>الأعوام</th>
<th>المرحلة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>1956 - 1958</td>
<td>التعليم الابتدائي</td>
</tr>
<tr>
<td>1960 - 1969</td>
<td>التعليم الثانوي</td>
</tr>
<tr>
<td>1970 - 1975</td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>

ويمضي من الجدول السابق ما يأتي:


لم يكن الاستعمار الفرنسي يحارب هذا التعليم الابتدائي، وكان يشجعه على أساس أنه مورد الكنية والسعي إلى الموظفين الصغار الذين لا بد منهم لندور عجلة الإدارة حيث استتب التنوعات الفرنسية، وأتسعت القضية وتباعدت المواقع، حتى إن إحدى المستعمرات الفرنسية كانت تزيد مساحاتها على مساحة فرنسا، ومن ثم كان لابد من اللجوء إلى الأيدي الوطنية، ولكن تحت الرقابة حيث لا يدير أمر إلا بموافقة الإدارة العليا، بل إن حاكم مستعمرة تشاد ذاتها كان لا يبرم أمرا إلا بعد الرجوع إلى الحاكم العام لاتحاد إفريقيا الفرنسي في برازافيل، وكانت تشاد نفسها توضع في نهاية قائمة الاهتمام بالنسبة لأوطان الاتحاد.
الأخرى، ففي حين كان الكينغو الفرنسي (برازافيل) والكونغو وجابون أكثر أهمية بسبب وفرة مواردها الطبيعية.

إذا كان هذا وضع التعليم البدائي إبان الفترة الاستعمارية، فلقد بدأت بعد ذلك المورشات التعليمية وأولها مرحلة التعليم الثانوي الذي لا يوجد تشجعاً لأبنائها مرحلة يبدأ فيها تفكيم الشباب. ومن ثم كانت الأرقام متواضعة للغاية فكانت الأعداد قبل الاستعمار تصل إلى ما يقرب من خمسمئة فقط عام 1958م، ثم أصبحت تضرب هذا الرقم في 15 بعد 10 أعوام من الاستقلال ليقترب العدد من 9 آلاف طالب، عام 1968م - 1969م، وهو الآن يقترب من مليون، وأظن أن هناك فرقاً، وليس هذا بمستغرب إذا رجعاها مرة أخرى إلى تقرير مدير التعليم السابق إفريقيا السوداء؛ إذ يقول التقرير: "إن التعليم في المستعمرات ليس أمراً عادياً، والخطر في أن تتوسع فيه". وكان تقريره يعارض بلا هوادة توسيع نطاق التعليم الثانوي.

أما التعليم الجامعي فهذا معناه ظهور خطرين في آن واحد؛ أولهما: تكوين طبقة مقنعة حققية ثورية، تقود البلاد في معركة الحرية والاستقلال. وقد ظهر هذا في مصر حين كان طلبة المدارس العليا (كما كانت تسمى حينئذ) يحملون مشاعل الثورة والحرية.

ثانيهما: تكوين طبقة تتولى المناصب العليا، ومن ثم تكسر احتكار الفرنسيين لها. ويكفي أن الرئيس سنغور حين كان نائباً عن السنغال في الجمعية الوطنية الفرنسية طلباً بالسلطة الفرنسية ثلاث سنوات بأن تدخل مهندسين إفريقيين أثريتين لا غير في وظائف الأساليب العامة.

كما كتب سنغور نفسه في يناير عام 1957م في مجلة الفكر الفرنسي: "لقد
نال أحد السنغاليين وظيفة مهندس لأنه قدم رشوة.

إذن فالتعليم العالي دونه خرط القداس أولأنه سوف يفتح عليهم أبوابهم المغلقة لأكبر فترة ممكنة، وإن كان وليد من مؤهل التعليم العالي ففي كينو برافيل.

بعد نحو عقد من الاستقلال، وعلى الرغم من جهود حكومة الاستقلال في نشر التعليم وتعويض ما فقد، فإن الصورة العامة عام 1971م بدت متواضعة، إذ أظهرت الإحصاءات أن 88% من الرجال أميون، وأن 99% من الإناث فوق 15 عاما لا يعرفون القراءة والكتابة أو يتحدثون باللغة الفرنسية، اللغة الرسمية للبلد، أما فيما يخص الرجال المتعلمين، فإن 4% منهم يجيد القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، 7% يجيدون القراءة والكتابة باللغة العربية، 6% يجيدون القراءة والكتابة باللغة العربية، 7% يجيدون القراءة والكتابة باللغة العربية، 6% يجيدون القراءة والكتابة باللغة العربية.

هذه هي نتيجة الفرنسيان هناك، في محاولة زرع اللغة الفرنسية في تشاد، فماذا كانت نتيجة بالنسبة للأيام؟ استطاعت فرنسا أن تتصوّر دائرة محدودة باللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية، والذوق الفرنسي، ومحاولة تقليد الفرنسيين في حياتهم، وما ينبع ذلك من زهو وغزو وشعور بالاستعلاء تجاه غالبية السكان، خاصة أنهم الذين يحترمون الوظائف الرسمية، ومن ثم قد يكون هناك شعور بعنصري شدة لا!! الصحافة واللغة

حتى عام 1971م كانت النشرة اليومية هي Agence Tchadienne de Presse (ATP) وكالة الصحافة التشادية باللغة الفرنسية، كما كان لغرفة تجارة تشاد نشرة أسبوعية بعنوان معلومات...

Le Journal officiel de la République du Chad est également disponible en ligne et peut être consulté via le site officiel du gouvernement du Chad. La revue La Vie Africaine est également disponible en ligne et contient des articles sur la vie quotidienne en Afrique.

Les publications scientifiques tels que les Chadian Research Center, Centre de Recherches Tchadienne, National Chadian Institute for the Human Sciences et le Museum sont également disponibles en ligne.

ורגول من لغة موحدة لتشاد؟

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر مهم منعناصر الوحدة القومية. وأنها أكبر عامل يؤثر في نفس الناس إرادة النظام في أمة واحدة، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدني (اجتماعي) وأنه ناطق (فكير) ، فإن الشعوب تتميز بعضها عن بعض وأن لكل منها لغة خاصة تتكون بها، فمما لا شك فيه أن اللغة هي أقوى رباط معنوي بين الأفراد، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر بها كل
قوم عن أغراضهم، ومن ثم هذا أن لكل قوم لغتهم، ومن ثم تفاهم الأفراد بلغة واحدة تقارب تفكيرهم، ونشأ فيه شعور بالتعاطف، بلما ينشأ مثله بين أفراد يتكلمون لغات مختلفة، وهذا التعاطف عامل عميق في جعل المتكلمين لغة واحدة يؤدون أمة واحدة. ولما كانت اللغة عماد الثقافة بالنسبة للأمة كانت بمثابة الروح بالنسبة للإنسان، لذلك يذهب البعض إلى أن الأمة ليست ملايين من البشر، يعيشون على الأرض نفسها أو يرجعون لأصل واحد فحسب، بل الأمة أيضاً وحدة من الفكر والشعور والإرادة والعمل. ومن أجل المشاركة في الفكر والشعور والإرادة والعمل، لا بد أن يكون هناك اتصال بين أعضاء الجماعة القومية، ومن ثم كان للغة المشتركة أهميتها وأثرها بوصفها أداة فعالة في تشكيل الوحدة القومية. ومن الناحية النظرية يفرض أن العقل البشري يفكر مجرداً ولكنه من الناحية العملية يفكر بلغة ما. لذلك فالوحدة التي تتم بين أناس يتكلمون لغة واحدة، لا بد أن تكون قوة لأنها تخلق فيهم أثراً أنواع الوحدة وأكثرها ضرورة للإنسان. وهي وحدة الفكر، فالحقيقة التي تسمعها أحياناً في الدول التي تتعدد فيها اللغات وهي "شعب واحد ولغة واحدة" ليست شعاراً سياسيًا أجوف بأي حال، ويزيد على وحدة الفكر والمشاعر أن اللغة تعد الوعاء الذي تتجمع فيه وتختزن خبرات الأمم خلال الأزمات المختلفة، وإنجازاتها الأدبية، والفنية، والعملية، وتختزن فيه آلامها وآمالها ومشاعرها بوجه عام.

إن وحدة الفكر والشعور والسلوك هي ما يعطي في النهاية الشخصية القومية. لذلك كانت لغة الأمة الهدف الأول للمستعمرين، وتعمل الدول المستعمرة جاهدة على قتلها لنشر لغاتها ويث تباقتها، لما في ذلك من تأثير كبير في واد الروح الوطنية أو خلق شعور بالرضي عن أفائج الدول الاستعمارية، وقد رأينا
في فرنسا مثلا، صار بما في فرض لغتها وواد لغات الآخرين.

الخطأ التربوي:

علل من أهم القضايا المتعلقة بالسياسات اللغوية ما يخص التعليم، لأن اللغة أداة التعليم في مختلف المراحل التعليمية، فما اللغة التي ستكون إجبارية؟ وما اللغة التي ستكون اختيارية للدراسة؟ وما نسبة المنهج المدرسي الذي سيدرس بلغة أو بلغات ما؟ وما المستويات المطلوبة في هذه اللغة أو تلك اللغات؟ لذا فمعظم الذين كتبوا عن السياسات اللغوية في إفريقيا هم لغويون وتربيون. وليس من شك في أن اهتمامهم صالح الطالب وصالح العملية التعليمية التي يجب أن توضع في الحسبان عند مناقشة أي سياسة تعليمية.

ولكننا في الوقت نفسه يجب أن نعرف بأن السياسة اللغوية لها نتائج أوسمن العملية التعليمية، فالسياسة التعليمية لها خطورتها في تكوين الأمم والشعوب. ولن نناقش هنا ما يقد قدر ما نناقش الخطأ التربوي اللغوي.

فنتظر إلى العبث الذي يقع على طفل في البيت، اللغة الأم سواء أكانت سارة أم لغة الكانتمو، فعليه أيضا أن يعرف العربية أو التركية، ثم عليه أن يتعلم الفرنسية، وهذا عبث كبير للغاية في المراحل الأولى للتعليم بلا شك.

وقد أثبتت الأبحاث التربوية في العالم سواء أكانت في أوروبا أم في العالم العربي خطاً هذه الطريقة التربوية. وتستشهد أخيرا بتقرير الأستاذ بابس فافونا في جامعة Ife في نيجيريا الذي صدر عام 1977م عن أثر Babs Fafunwa تعدد اللغات على القدرة على التفكير المجرد لدى الطفل من اليوروبا.

- 77 -
فقد ظهر أن الطفل الذي حصل علومه بلغة في نيجيريا أقدر على الاستعادة باللغة نفسها منه لو كانت الاستعدادا باللغة الإنجليزية، وخرج بنتيجة أخرى هي أن الطفل الذي ينهى مرحلة التعليم الابتدائي ويتعلم لغتين فيها، ينهي المرحلة بدون أن يحقق إجادة معقولة لأي منهما، على عكس الذي يقتصر على لغة واحدة، لأن الطفل يتعلم بلغته، وإدخال لغات أخرى في التعليم لابد وأن يأتي في مرحلة متأخرة نسبيا.

أخيراً أوجه النظر إلى ما قاله كول أوموتشو الكاتب Kole Omotosho.

النيجيرى وأسماج الجامعة الذي قال بعد افتتاح الاجتماع الأول لاتحاد الكتاب الإفريقيين الإفريقيين بحاجة لأن يعبروا عن شخصياتهم من خلال لغة واحدة، وإنه يافظ World Black لأن المخططين للمهرجان العالمي لفنون السود الأفارقة وثقافتهم لم يعنوا إلا بالفنون and African Festival of Arts and Culture والبولكلور والرقص، وكأن اللغة ليست من الثقافة في شيء، أو أنها ليست عماد الثقافة.

إذا كان هذا أمل الكاتب الأديب بالنسبة لافريقي، وهو أمل يبعد المناخ نسبياً، وليس من حقنا أن نطالب بلغة واحدة لتشادي وهي دولة واحدة؟ ولكن ما اللغة التي تكون للغة الرسمية والوطنية في آن واحد إذا استبعدنا معظم اللغات المحلية، لأنها غير مكتوبة وشفافة ولأن انتشارها يعد انتشاراً محدوداً ستكون اللغة العربية هي الأولى بهذه المكانة لما يأتي:

١ - انتشارها في مساحات واسعة وتعدد الثقابية أو الجماعة الواحدة.
2 - اختلاطها باللغات المحلية وظهور أقلاط منها في اللغات المحلية بحيث ظهرت هناك لغة عربية (التوركو) تكون لغة تفاهم مشتركة.

3 - فيما يختص بالفرنسية، فإنها تصبح لغة ثانية لا أولى، ولا تقول تلغي، فهي وسيلة للاتصال على ما يجري في العالم العربي، هذا ولا يبدأ تعليمها في المرحلة الابتدائية، بحيث يعطي الطالب فرصة لإنقاذ اللغة العربية.

ونظراً لأن الموضوع ليس بالسهولة التي يصورها البعض فلابد من تكوين هيئة فنية أو أكاديمية لبحث الاقتراحات في هذا الصدد، ويعود نواة الهيئة أحد معايير البحوث والدراسات الإفريقية كالمعهد التابع لجامعة القاهرة. ويدعو أن الهيئات يجب أن تضم المتخصصين في اللغات عامة وعلم الأصوات Structures والتراكيب Phonetics والدراسات الإفريقية عموماً، نظراً لأن الموضوع له جوانب أخرى غير لغوية بحتة.
الهوامش

(3) اليونيسكو. تاريخ إفريقية العام، مجلد 26، ص 367.
(4) الأنهار الإفريقية وأزمة الجفاف، مركز البحوث العربية (مرسوم 1994)
(5) اليونيسكو، مجلد 36، مرجع سابق.
(8) Ibid., p. 50.
(9) Azevedo, M., op.cit, p. 95.
(11) Ibid., p. 230.
(12) Ibid., p. 237.
(14) Saburi Biadabu, op. cit, pp. 230-323.
(15) Azevedo, M., op. cit., p. 93.
(16) The American University, Chad, op. cit., p 37.

(19) من المستحسن في هذا المجال أن نشير إلى بعض المصطلحات، فاللغة بنيية من العلاقات الصوتية والصرفية والتحولية، في حين أن اللغة العربية هي تركيب كلامي ينتمي إلى أصل لغوى معين، وتميز عن غيرها من مشتقات ذلك الأصل اللغوي في الطلقة والمفردات وبعض التراكيب، أما اللغة العربية فتأتي من خلال نطق اللغة على نحو غير سليم، وهذا ما أشار إليه الجاحظ، في وقت مبكر في ضوء احتكاك العرب بالعجم في مستهل الفتوحات الإسلامية، وظهور
اللحن في الأداء اللغوي، حيث عرف الجاحظ الملكة بأنها إدخال بعض حروف العجم في حروف العرب، أي التعبير الذي يطرأ على الأصوات العربية بسبب وقوعها تحت تأثير أصوات غير عربية.

(20) The American University, Chad, op. cit, p. 44.
(21) Ibid., p. 23.
(22) Ibid., p. 36.
(23) Ibid., p. 34.
(29) Hiskett, op. cit. 52.
(32) انظر: اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، ص 25 - 27).
(33) المرجع السابق، ص 259.
(34) المرجع السابق، ص 257.
(35) Lewis, Lm., op. cit, p. 213.
(36) جون لويس بوركهات، رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندرؤس، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1989، ص 231-277.
(37) سليمان محى الدين فؤوح، الحركات السياسية، العرقية، المهنية (دراسة مقارنة مع الإشارة لدور كل منها في مقاومة الاستعمار الأجنبي)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في الدراسات الإفريقية من قسم التاريخ، معهد الدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة، غير منشورة، ص 23.
(38) اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، مجلد 6، ص 200.
(39) Clarke, P., op. cit., p. 102.


(41) المرجع السابق، ص 95.

(42) المرجع السابق، ص 100.


(44) Clarke, P., op. cit., p. 103.

(45) Ibid., p. 105.


(47) Ibid., p. 277.


(49) Ibid, pp. 109, 115.


(53) Azvedo, M., op. cit., p. 98.

(54) Hill, W.R., p. 147.

(55) Azvedo, M., op. cit., p. 293.


(57) The American University, Chad, op. cit., pp. 78, 98.